

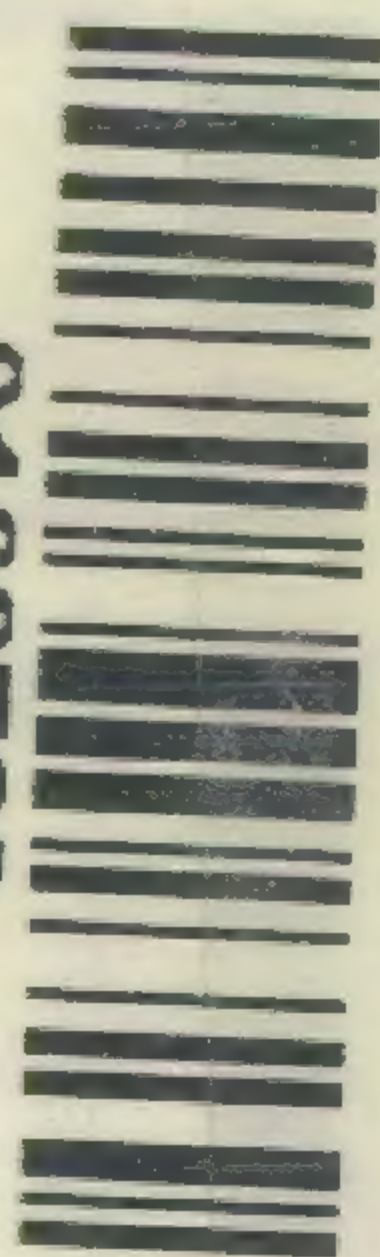
محمد الدسوقي

# الهاجرة في القرآن

# اقرأ



0168769



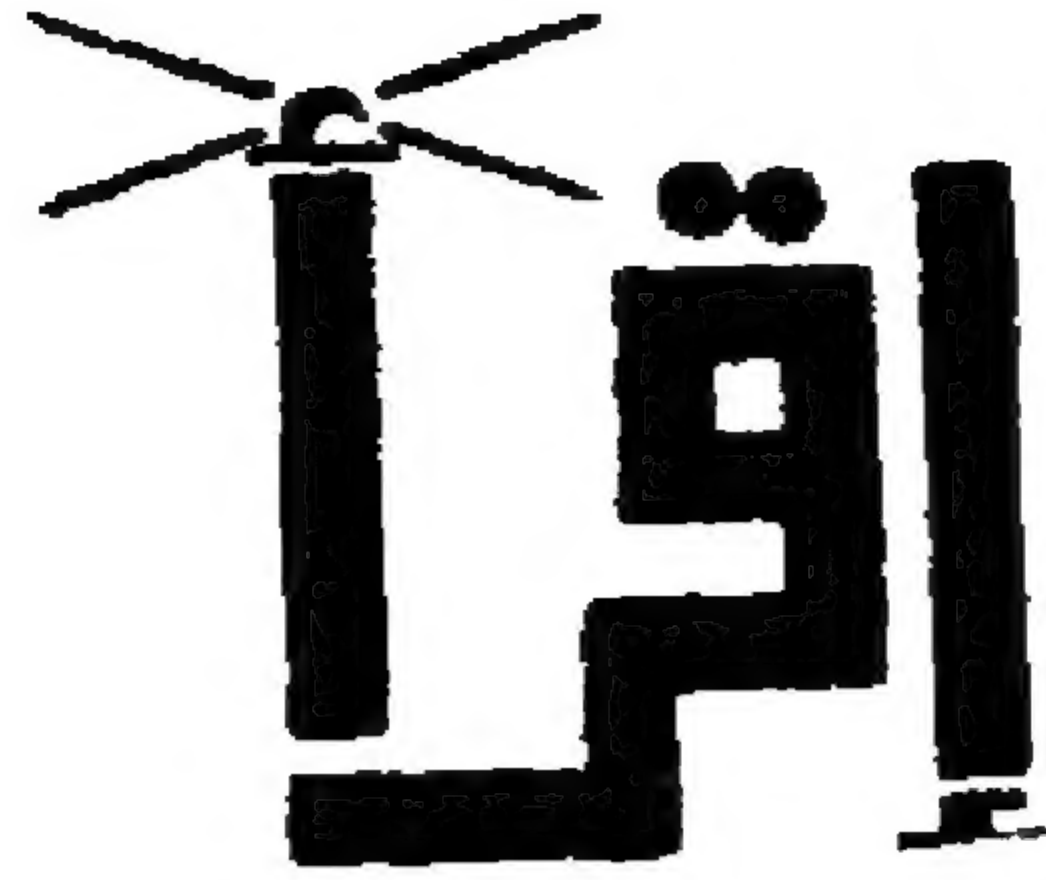
Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية

29

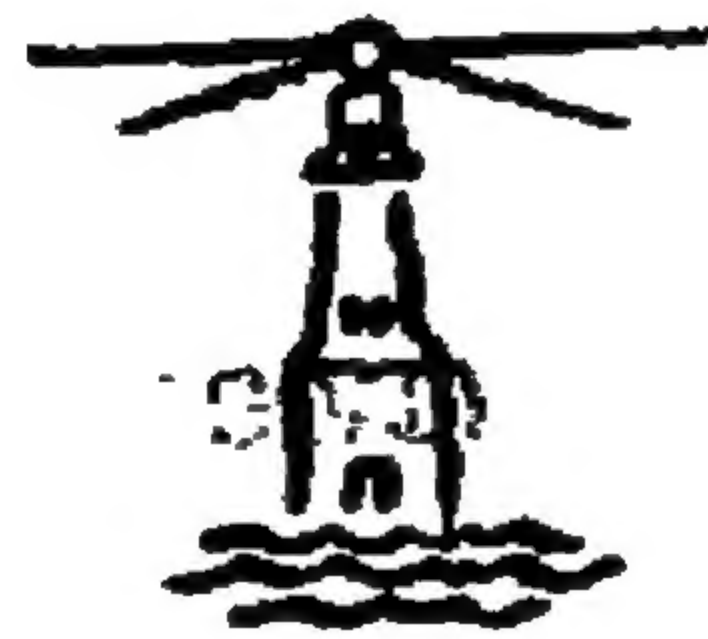


لبنان ١٠٠ ق.ل	سوريا ١٠٠ ق.س	الأردن ١٠٠ ف.أ
العراق- الكويت ١٠٠ ف.ع	الخليج العربي ١٥٠ ف.ع	السعودية ٢ ريال
مدين ٣,٥ شلن	السودان ١٢٠ ملجا	ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم	الجزائر ٢,٢٥ دينار	المغرب ٢,٢٥ درهم



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد



# الهجرة في القرآن

اقرأ ٣٣٨  
دار المعارف بمصر

اقراء ٣٣٨ - فبراير سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.٥ ع.٢٠

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد النبي الأمي الذي جاهد في الله حق جهاده حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى البشرية إلى سبيل السعادة في الدنيا والآخرة .

وبعد فإن الهجرة من مكة إلى المدينة تعد من الأحداث الفاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد كانت نهاية لعهد تعرض فيه المسلمون لألوان مختلفة من الاضطهاد والأذى . فما ضعفوا وما استكانوا ، وبداية لعهد جديد نصر الله فيه الإسلام على أعدائه نصراً مؤزراً ، حيث خاضت القلة المؤمنة حروباً عديدة ضد الكثرة المشركة ، فما أجدت كثرة المشركين شيئاً ، وما حالت قلة المؤمنين بينهم وبين الظهور على أعدائهم ، لتصبح كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الهجرة حديثاً مجملاً يعتمد على الكلمة الموحية والعبارة الموجزة ذات الدلالات الضخمة والمعاني الكبيرة ، وهذا منهج القرآن بوجه عام في عرضه للأحداث والأحكام ، على أن حديث القرآن عن الهجرة لم يكن خاصاً بذلك الحدث الرائع الذي ارتبط بتاريخ الأمة الإسلامية كل الارتباط وأصبح رمزاً على الفداء والتضحية والجهاد ، ولكنه تجاوزه إلى ما يتصل بالمعنى اللغوي لكلمة الهجرة ، وإن كان بين هذا المعنى وذلك الحدث صلة وثيقة ومعان مشتركة .



يقول ابن فارس في مقاييس اللغة عن مادة هجر الهاء والحاء والراء أصلان يدل أحدهما على قطيعة وقطع ، والآخر على شد شيء وربطه .  
 فالأول الهجرة : ضد الوصل ، وكذلك الهجران ، وهاجر القوم من دار إلى دار : تركوا الأولى للثانية كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة . ثم قال : ومن الباب : الهُجر الهذيان . يقال : هجر الرجل ، والهُجر الإفحاش في المنطق . يقال : أهجر الرجل في منطقته قال :

كما جده الأعراق قال ابن ضرة عليها كلاماً جار فيه وأهجرا

ورماه بالمهاجرات . وهي الفضائح ، وسمى هذا كله من المهجور الذي لا خير فيه . ويقولون : هذا شيء هجر : أي لا نظير له كأنه من جودته ومباينته الأشياء قد هجرها .

وهذه الدراسة عن الهجرة في القرآن تتناول كل ما جاء في الكتاب العزيز من آيات تشتمل على مادة « هجر » ، مع الاهتمام بإبراز أهم أحداث الهجرة التاريخية في ضوء الآيات القرآنية دون اهتمام بالتفاصيل الجزئية والأحداث الفرعية ، مع الاستهداء في هذا بكتب الحديث والتفسير والسيرة .

وقد اقتضى منهج البحث أن أقدم له بدراسة سريعة عن مراحل الدعوة قبل الهجرة . ويعقب هذا حديث عن أسباب الهجرة وعرض لأهم أحداثها وإشارة إلى هؤلاء المجاهدين ، الصادقين من المهاجرين والأنصار ، أولئك الذين أخلصوا لله وضرَبوا أروع الأمثلة في ثبات اليقين وجلال الفداء .

ثم تناولت بعد هذا دراسة الآيات التي وردت فيها مادة « هجر »



دون أن تكون لها علاقة بأحداث الهجرة التاريخية ..

وعقدت فصلاً موجزاً عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا »  
لأن لهذا الحديث صلة حميمة بغاية الهجرة ، ولأن من العلماء من  
شرحه شرحاً يتعارض مع هذه الغاية .

وجاءت خاتمة هذه الدراسة تسجيلاً لما انتهت إليه من دروس  
ونائج . .

وكل ما أطمع فيه أن أكون قد قدمت عملاً نافعاً يلقي مزيداً من  
الضوء على بعض آيات الكتاب العزيز وأن يكون في هذه الدراسة ما  
يهدى إلى التى هي أحسن .

والله ولى التوفيق

محمد الدسوقي

مجمع اللغة العربية







## مراحل الدعوة قبل الهجرة

- ١ -

مما لا خلاف عليه أن الناس كافة وأهل الجزيرة العربية بوجه خاص كانوا قبيل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم في حاجة ملحة إلى من ينير لهم طريق الخير ويحول بينهم وبين ما هم فيه من جهالة وضلالة .

لقد فقد المجتمع البشرى كل أسباب الاستقرار والأمن ، وأصبح منطق الغابة سائداً بين الجميع وهجر الناس بوجه عام تعاليم الرسالات الإلهية وأخذوا يسجدون لأصنام وأوثان يصنعونها بأيديهم ، وانحرفت لدى بعضهم عاطفة الأبوة انحرافاً شاذاً ، فكان إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الأساء ما يحكمون . وعلى الحملة فإن الظلام كان مطبقاً ، ظلام العقائد والعادات والأخلاق ، وكان لا بد أن يشرق الفجر الذي يبدد الغياهب ويهدي إلى سواء السبيل حتى تستطيع البشرية أن تواصل مسيرتها على ظهر هذه الأرض كما أراد لها الله .

وانبثق الفجر في بطحاء مكة ببعثة محمد بن عبد الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته قد حجب إليه الخلاء ، فكان يعتكف الليالي ذوات العدد في غار حراء ، يفكر في ملكوت الله ، لقد اصطفاه رب العالمين لحمل الرسالة الخاتمة والهداية العامة ، وكانت



تلك الفترات التي هجر فيها الحياة في مكة وبلحاً إلى ذلك الغار يقيم فيه وحده لا يهاب شيئاً بمثابة الإعداد للقيام بأمر السماء يبلغه إلى الناس مهما واجهته الشدائد والمصاعب .

ونزل الوحي على الرسول في الغار وكان في نحو الأربعين من عمره : فقال له جبريل اقرأ وكان محمد أمياً لا يعرف الكتابة والقراءة فقال : ما أنا بقارئ فضمه جبريل في شدة ثم أرسله وقال له : اقرأ ، فرد الرسول عليه بمثل ما قاله أولاً . وكرر جبريل ضم الرسول مرة ثانية ، وطلب منه أن يقرأ ، وقال الرسول ما أنا بقارئ وهنا ضم جبريل الرسول للمرة الثالثة ثم أرسله وقال له : اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

وقرأ الرسول هذه الآيات ووعاها وهو في حالة من الفرق والجزع مما رأى ، وتركه جبريل ولم يلبث الرسول أن ترك الغار راجعاً إلى زوجته يرجف فؤاده . وحين دخل عليها قرأت في وجهه دلائل ما ألمّ به وحدث له ، فلم تكذ تسأله عن شيء حتى طلب إليها أن تهني له غطاء يكنه عله يذهب عنه ذلك الروح الذي سيطر على حواسه وملك عليه نفسه .

وبعد لحظات من القلق عاشتها السيدة خديجة رضي الله عنها ، أخبرها الرسول بما كان وهو في الغار ، واستقبلت الزوجة الشقيقة بزوجها ما قصه عليها بنشوة من الغبطة . لأنها أدركت أن زوجها مقبل على مهمة جليلة تصل الأرض بالسماء ، وكان مما قالت له تواسيه وتبشره : أبشر يا بن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة<sup>(١)</sup> .



وكان ورقة بن نوفل بن أسد ابن عم للسيدة خديجة وكان قد تنصر  
وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، ورغبت الزوجة الطيبة  
أن تخبر ابن عمها بما حدث لزوجها فقد يكون لديه ما يزيد قلبها اطمئناناً ،  
على ما ترجوه لزوجها وتتوقعه له .

وما إن عرف ورقة أمر الملك الذي هبط على محمد في الغار حتى  
بشره بالنبوة وحذره من قومه الذين سيكذبونه ويؤذونه ويخرجونه ويقاثلونه ،  
وتمنى أن يمتد به الأجل ليكون له رداءً ونصيراً .

ومكث الوحي فترة لا ينزل عليه ، وكان الرسول في شوق لرؤية  
الملك الذي جاءه في الغار ، وتحول الشوق إلى حزن بالغ حين داخله  
اليأس بأنه قد لا يراه ، إلى درجة أنه آثر الموت على الحياة ، وذهب  
أكثر من مرة ليلقى بنفسه من فوق ذروة جبل من جبال مكة ، ولكن الله  
الذي اجتباه كان به رءوفاً رحيماً ، فتبدى له جبريل يبشره بأنه رسول الله  
حقاً ، ثم تتابع عليه وحى السماء بعد أن فتر مدة لم يتفق المؤرخون على مقدارها .  
وأخذ الرسول الكريم يدعو الناس خفية إلى الله وآمن به من آمن  
وفي مقدمتهم زوجته خديجة وأبو بكر وابن عمه علي بن أبي طالب وزيد  
ابن حارثة وبلال بن رباح ، وكان من هداه الله إلى دعوة الإسلام  
يتوارى من المشركين بصلاته<sup>(١)</sup> . فمنهم من كان يصلي في بيته ومنهم

---

(١) فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء قبل الهجرة بعام ، وذكر أنها  
قبل هذا كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، وكانت كل  
صلاة ركعتين ، فلما كانت ليلة الإسراء وفرضت الصلوات الخمس أتمها الله  
في الحضر ، وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين .

( وانظر الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ج ١ ص ١٦٦ ت . دكتور  
مصطفى عبد الواحد ) .



من كان يذهب إلى بعض الشعاب (١) حتى لا يراه أحد من قومه ،  
ومع حرص المؤمنين على أن يتخفوا مظاهر إيمانهم خوفاً من سطوة الجاهلية  
حدث أن سعد بن أبي وقاص ومعه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم كانوا يصلون في شعب من شعاب مكة ، فاطلع عليهم نفر  
من المشركين فأنكروا عليهم ما يصنعون ، ولم يرض سعد ومن معه بالدنية  
في دينهم فدفعوا عن أنفسهم ما حاوله المشركون من إيذاء المسلمين  
وضربهم ، ويروى أن ابن أبي وقاص ضرب رجلاً من هؤلاء المشركين  
بلحى بعير فشجه ، فكان أول دم هريق في الإسلام . . .

ورأى الرسول بعد هذا أن يجمع المسلمين في دار الأرقم بن أبي  
الأرقم وكانت في أصل الصفا يصلون فيها حتى لا تتعرض لهم قريش  
بالأذى ، فقد كانت أخبار الدعوة الجديدة قد تناقلتها الأفواه ، وأخذ  
المشركون يؤذون من يرونه يظهر الإيمان بمحمد وما جاء به ، ولكن الإيمان  
كان أقوى من عسف الطغيان ، فما خضع المؤمنون لما أراده الكافرون ،  
وما زادتهم الشدائد إلا اعتصاماً بحبل الله وثباتاً على طريق الهدى والنجاة .

## - ٢ -

وأمر الله نبيه أن يصدع بكلمة الحق ، بعد ثلاث سنوات من الوحي  
كان فيها يدعو الناس سرّاً إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ،  
فلما جهر الرسول بالدعوة لم يجد من أهل مكة إلا إعراضاً عنه ونفوراً منه ،  
وثورة عليه ، فما هذا الدين الجديد الذي خصه الله به ومحمد لديهم

( ١ ) الشعاب واحدها شعب وهو ما انفرج بين جبلين .

( انظر لسان العرب مادة شعب ) .



ليس أهلاً له ، وحاولوا بكل ما يستطيعون من وسائل أن يقفوا في وجه محمد ليحولوا بينه وبين ما يريد . ولكن محاولات الجاهلية على كثرتها وتنوعها باءت بالخسران والهزيمة وانتصر الحق وعلت كلمة التوحيد ودخل الناس في دين الله أفواجا .

لقد أخذ النور الذي جاء به محمد يغزو القلوب وينير العقول ، وأخذ الشرك يسوم هؤلاء المهتدين صنوفاً من الأذى والاضطهاد ، وما كانت قريش تتعرض للرسول كما تتعرض لأصحابه بسبب عمه أبي طالب ، فله في مكة منزلة الجليلة وقد وقف مع ابن أخيه يذود عنه ويعطف عليه على الرغم من أنه لم يؤمن بما جاء به .

ولما رأت قريش أن أبا طالب يحمي الرسول مشي رجال من ساداتهم وأشرفهم إليه وكلموه فيه وقالوا له إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلص بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيه . ولم يستحب أبو طالب لسادة قريش وإن كان قد تلطّف معهم في القول وردّهم ردّاً رقيقاً ، فانصرفوا عنه وهم يحسبون أنه سيقف دون محمد وما يدعوا إليه . ولكن الرسول الكريم مضى في طريقه يبلغ رسالة ربه غير عابئ بما تضعه الجاهلية من أشواك أمامه وأمام الذين اهتدوا بدعوته .

وذهب أشرف قريش مرة ثانية إلى أبي طالب واتسمت لهجتهم في الحديث معه هذه المرة بالحدة والتهديد بالحرب إن لم يمنع ابن أخيه مما يقوم به .

واختار الشيخ الوقور بين مشاعره نحو ابن أخيه وإحساسه بالانتماء إلى قومه ، ولم يجد خلاصاً مما هو فيه سوى أن يبعث إلى محمد وينهى إليه ما قاله زعماء قريش ، ثم أردف هذا بقوله : أبق على نفسك وعلى



ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . وما كاد أبو طالب يلفظ هذه العبارة في هدوء يشوبه القلق حتى استولى على الرسول إحساس بأن عمه قد تخلى عنه ولم يعد قادراً على نصرته ، إلا أن هذا الإحساس بدّده الإيمان الذي لا يغلب ، فقال الرسول لعمه تلك القول التي أصبحت شعاراً للفداء وثبات اليقين : يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته . ويروى أن الرسول بعد أن قال هذا بكى ثم قام منصرفاً ، وكان الشيخ الوقور لا يتوقع من ابن أخيه ما كان منه ولكنه حين فوجئ بهذا الرد الحاسم وحين رأى تلك القطرات الظاهرة تسيل على خديه غلبت على أبي طالب مشاعر الأبوة الحانية ، فنادى محمداً وقال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً (١) .

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه وأنه لن يحول بينه وبين تسفيه أحلام أهل مكة والنيل من آلتهم ، وهنا قرر قادة الشرك أن يختاروا فتى من أجمل فتیان قريش هو عمارة بن الوليد ، وذهبوا به إلى أبي طالب وعرضوا عليه أن يتخذ عمارة ولداً له ويسلم إليهم ابن أخيه ليفتكوا به ، وجاء رد أبي طالب معبراً أصدق تعبير عن سخافة ما عرضه سادة قريش عليه فقد قال لهم : والله لبئس ما تسوموني أتعطوني ابنكم أغنوه لكم وأعطيكُم ابني تقتلونه هذا والله ما لا يكون أبداً (٢) .

وأيست قريش من أبي طالب وأيقنت أنه لن يتخلى عن ابن أخيه وأن عليها لكي تحمي وحدتها وآلتها أن تقوم بعمل جديد ظنت أنه سيحقق ما تحرص عليه وهو القضاء على محمد ودعوته .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٥

(٢) المصدر السابق ، وتسوموني : تكلفوني .



وكان هذا العمل الذى ظنت قريش أنه سيضع حداً لهذا الداعى الجديده هو الإمعان فى تعذيب من آمن به واتبع رسالته وصباً عن دين آبائه .

وكان المستضعفون والأرقاء يصب عليهم العذاب أضعاف ما يصب على سواهم ، ولم ينج الرسول نفسه من حماقة قريش وخطورتها وسوء فعالها . وما حقق هذا لقريش ما ترجوه وتسعى جاهدة لبلوغه ، وراعها أن أتباع محمد يزيدون كل يوم . وكان يفرعها أكثر أن تجد بعض رجالات مكة يؤمن بالرسالة الخاتمة ؛ لأن هذا يعنى أن قوة محمد تنمو وأنه لو ترك هكذا فإن يوماً لا بد آت فيه تفقد قريش كل ما تذود عنه من معبوداتها وأعرافها وتراث آبائها .

وفكر بعض سادة قريش أن يذهب إلى محمد يكلمه ويعرض عليه ما رأى أنه قد يكفه عن المضى فى طريقه ، وأثيرت الفكرة فى نادى قريش فرحب المشركون بها ؛ لأن التعذيب لم ينجح فى وقف التيار عن اندفاعه ، وقام عتبة بن ربيعة ، وقال للرسول بعد أن أشار إلى دعوته التى فرقت كلمة قريش وسفقت أحلامها وعابت آلهها : يا بن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتىك رثياً<sup>(١)</sup> تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب

( ١ ) الرثى : ما يترامى للإنسان من الجن .

وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

وقال الرسول الكريم بعد أن سمع هذا الذي عرضه عتبة : فاسمع مني ، وقال عتبة افعل ، فتلا محمد من أول سورة فصلت إلى أن بلغ آية السجدة فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذلك .

وانصرف عتبة إلى أصحابه مأخوذاً بروعة القرآن وسمو فصاحته .  
وما طلع عليهم حتى قال بعضهم نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . ولما قال لهم : قد سمعت قولاً والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة وطلب منهم أن يدعوا محمداً وما هو فيه . قالوا له : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم (١) .

وهذا الموقف من قريش يدل على أن ظلام الوثنية قد ران على القلوب والعقول وصرفها عن أن تستجيب للدعوة الحق ، وجعلها تخال أن مثل محمد إنما يرجو بما يقوم به أن يحيا في رغد من العيش أو منعة من السلطان . ولهذا لم تأبه لرأي عتبة ونصيحته ، وأهمته بالضعف أمام سحر محمد ، وأخذت تبحث عن وسيلة أخرى ، تحارب بها الدعوة الجديدة ، ودفعها تفكيرها القاصر وظنها الخاطي إلى أن تطلب من الرسول حتى تؤمن به أن يُسير عن قريش تلك الجبال التي ضيقت عليها الأرض وأن يشق لها الأنهار التي تذهب القبط وتنشر الزرع وتدعو

---

(١) محمد رسول الله صلى الله عليه للأستاذ محمد رضا ص ١٠٩



إلى الاستقرار وترك الزوج والهجرة طلباً للماء والكلاً إلى غير هذا مما يدور في فلك المستحيلات وخوارق العادات ، وقد سجل الكتاب العزيز بعض ما طلبت قريش من الرسول لكي تسلم له بصدق دعوته وتدعن لما تأمر به رسالته .. (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا<sup>(١)</sup>).

وهذه الآيات الكريمة تبرز بجلاء قصور إدراك هؤلاء المشركين ، وتدل على تعنت ساذج منهم ، وتبجح في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تخرج . ولو كانوا حقاً يطلبون ما يقنعهم ليؤمنوا لا ليمسوا في القرآن وهو المعجزة الخارقة الباقية التي لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه — الدليل العقلي للإيمان الراسخ القوي ، غير أن كفار مكة بتعنهم وطفولتهم الفكرية لم يمعنوا النظر في معجزة محمد الخالدة وعلقوا إيمانهم به بتحقيق تلك المقترحات التي لا يجمع بينها في تصورهم سوى أنها خوارق ، ونسوا أن الرسول بشر وأن الخوارق ليست من صنعه وليس من شأنه أن يطلبها من ربه ، ولا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا » يقف عند حدود بشريته ويمنع أدب الرسالة وإدراك حكمة الله في تدبيره أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به .

ولم يقف تعنت قريش عند هذا ، ورغبت في أن تطلب من أحبار اليهود أوصاف الرسول الذي تحدثت عنه التوراة ، وذهب رجالان من مكة

إلى المدينة ولقيا بعض أحبارها وتحدثا معهم فيما أوفدا من أجله ، ثم عادا إلى مكة يحملان من أحبار المدينة ثلاثة أسئلة إن أجاب محمد عنها فهو نبي صادق . وكانت هذه الأسئلة عن أهل الكهف وذى القرنين والروح .

ونزل وحى السماء بالإجابة السديدة التى ترشد الإنسان إلى أن يلزم حدود طاقاته العلمية وألا يخوض فيما ليس من أمره : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (١) .

ولكن هل أذعنت قريش لما جاءها به محمد من عند ربه ؟ لا ، لقد أسرفت في حماقتها وطغيانها وعنادها ، وضاعفت من تعذيب المؤمنين واضطهادهم إلى درجة أن أصبحت حياتهم في مكة شقاء متصلا وكان لا بد لهؤلاء المستضعفين من ملجأ ينقذهم من ضلال الجاهلية ، فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

## — ٤ —

لقد قال الرسول لأصحابه : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه . وكانت بداية الهجرة إلى الحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة بعد البعثة .

ولم تترك قريش هؤلاء المهاجرين ينعمون في جوار النجاشي بالأمن والحرية ، وأرسلت إليه تطلب منه ردهم ، إلا أنه بعد أن سمع مقالة

---

(١) الآية : ٨٥ من سورة الإسراء .



رسل قريش وسمع من المهاجرين ما حملهم على الرحيل إليه لم يستجب  
لرغبة وفد مكة وعاش المسلمون في كنف النجاشي عيشة طيبة لا يتعرضون  
لأذى أو اضطهاد .

وكان عدد الذين هاجروا قليلا ، ولم ينسوا نبيهم وموطنهم على الرغم  
مما كانوا فيه ، ولذلك ما إن عرفوا أن المسلمين يزدادون قوة وأنهم يمكنهم  
أن يعيشوا في مكة دون أن تقدر الجاهلية بصلفها وحمقها على أن تسيء  
إليهم أو تنال منهم ، فقد أسلم من الرجال ما تهابه قريش وله بينها منزلة  
رفيعة وشأن مرموق حتى رجع بعضهم إلى مكة .

ولكن الجاهلية انطلقت مسعورة غير عابئة بمن أسلم من رجالها  
تسوم المؤمنين صنوف العذاب الأليم لا يردعها رادع من دين ولا يزجرها  
زاجر من خلق أو رحم .

وعاد بعض المؤمنين مرة ثانية إلى الحبشة وظلوا هناك حتى سمعوا  
بهاجرة الرسول إلى المدينة فرجع بعضهم إلى مكة ولحق منهم من لحق  
بالرسول في المدينة .

ورأت قريش أن كل محاولاتها المحمومة ضد الدعوة الوليدة باءت  
بالحزيمة ولم تنجح في القضاء على محمد وأتباعه ، وراعى أن أنصار  
الإسلام يزدادون كل يوم ، وأنهم يجدون من يحقق لهم الأمن والقرار  
في غير مكة ، وفكر زعمائها في هذا الخطب الجلل ، وضمهم مجلس  
تشاوروا فيه وانتهوا إلى قرار جائر شل بني هاشم وبني المطلب جميعاً  
من آمن بمحمد ومن لم يؤمن به دون أن يكون ضالعاً مع أعداء محمد  
في حربه حتى يسلموه لقريش فتقتله وتسريح منه .

— ٥ —

وكان هذا القرار الذى اتخذته قريش يقوم على مقاطعة كاملة لبني هاشم وبني المطلب ، فلا يبايعونهم ولا يخالطونهم ، ولا يتزوجون منهم ولا ينكحونهم . ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً . وكتبوا هذا القرار الظالم فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة فى سنة سبع من المبعث .

وعاش النبي وأتباعه وأهله فى الشعب محصورين ، مدة تبلغ نحو ثلاث سنوات قاسوا فيها من هذه المقاطعة ما قاسوا ، وكانت أصوات الصبية تسمع من وراء الشعب بسبب الجوع والفاقة ، وما نالت هذه المقاطعة من القلوب المؤمنة وإن كانت قد تركت على آثارها على الأبرار المتغضنة والجسوم الهزيلة .

ثم تتابعت الأحداث بعد ذلك . مات أبو طالب فى السنة العاشرة ، وبعد وفاته بثلاثة أيام ماتت السيدة خديجة رضى الله عنها . وحزن الرسول حزناً بالغاً لوفاة عمه وزوجه حتى سمي العام الذى ماتا فيه « بعام الحزن » .

واشتد أذى قريش على الرسول بعد وفاة عمه وزوجه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه وطرح بعضهم عليه سلى<sup>(١)</sup> الشاة وهو يصلى . وخرج الرسول من مكة باحثاً عن أنصار وأتباع فى غيرها ، لقد ضاق ذرعاً بقريش وكاد يئأس منها ، وذهب إلى الطائف<sup>(٢)</sup> ولا تندمل

(١) السلى : الغشاء الرقيق الذى يحيط بالحنين ويخرج معه من بطن أمه .

(٢) تقع الطائف جنوب شرق مكة وتبعد عنها بنحو ٧٥ كيلومتراً والطريق =



جراح الحزن على من كان مدافعاً عنه وحانياً عليه وباذلاً له من جاهه وماله ما يخفف تعنت قريش وحمقها واضطهادها له .

ذهب الرسول إلى الطائف ومعه مولاة زيد بن حارثة وعمد إلى جماعة من أشرف ثقيف ودعاهم إلى الإسلام ، فسخرُوا منه وهزئُوا به ، وأغروا سفهاءهم وعبيدهم بسبونه ويرمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع الناس عليه في صورة كريهة تبعث على الأسى والألم ، رسول رحيم تحمل من أجل إخراج قومه من الظلمات إلى النور كثيراً من الآلام والمشقات ، يحيط به الغوغاء والأرقاء والسفهاء يسبونونه ويحصبونه ولا يجد أحداً يحامى عنه ، بل يجد دعاة الشر يحرضون على مضاعفة الإثم والمنكر ، وكان الرسول يحاول أن ينأى عن هذا الجمع الذي تملكته حمى السخرية والإيذاء ، إلا أنه كان إذا اتجه إلى طريق أو مكان هرعوا وراءه حتى وجد نفسه أخيراً يدخل بستاناً فانصرفوا عنه وقد أدموه وأرهقوه كل إرهاق .

إنها مطاردة مؤلة قاسية تعرض لها إنسان رحيم يحمل بين جنبيه قلباً يفيض بالعطف على قومه والحرص على هدايتهم بالرغم مما ناله على أيديهم من عنت واضطهاد وصدق الله العظيم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١)

وليس أدل على حماقة أهل الطائف ومبلغ قسوتهم وإيذائهم للرسول من أنه عليه السلام ظل يذكر ما لاقاه في تلك المدينة ويعد

---

= إليها وعرو ويخترق سلسلة من الجبال، وسواء ذهب الرسول إليها راجلاً أو راكباً فإنها رحلة مضيئة لا يقدم عليها إلا ذوو العقائد الراسخة والعزائم القوية .

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

يومه فيها من أشد الأيام إيذاء له ، فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من أحد (١) ؟ قال : لقيت من قومي ما كان أشد . قال : وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت . فانطلقت على وجهي وأنا مغموم ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن (٢) الثعالب فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعثت إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم على وقال : يا محمد ، أنا ملك الجبال قد بعثني ربّي إليك لتأمرني بما شئت ، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (٣) ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً (٤) .

ما أعظم رحمتك بقومك يا رسول الله وما أشد حرصك على ما

---

(١) في أحد كما هو معروف كسرت رباعية الرسول ، وهي السن التي بين الشية والناب ، وجرح وجهه ، وكسرت البيضة على رأسه ، وأصيبت ركبته ، فضلاً عن استشهاد من استشهد في هذه الغزوة وعلى رأسهم حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) انظر أمتاع الأسماك للمقرئ ج ١ ص ١٣٥

(٣) موضع تلقاء مكة على مرحلتين منها .

(٤) الأخشبان : جبلان بمكة .

(٤) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ٩٨ . ط المجلس

الأعلى للشئون الإسلامية .



ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، لقد آذوك واضطهدوك ولكنك تعلم أنهم على ضلال فأغضيت عن سفهم ولم تنشأ أن ينزل العقاب المدمر بهم ورجوت الله أن يخرج من أصلاهم من يعبد وحده ، ولا غرو أن كنت رسول الإنسانية كافة ، وأن كنت المثل الكامل والقدوة الحسنة وأن يثنى عليك الله في كتابه العزيز بما أنت أهل له « وإنك لعلی خلق عظیم » (١) .

## - ٦ -

ولم يستطع الرسول دخول مكة بعد تركه الطائف حزينا إلا في جوار المطعم بن عدي ، فالجاهلية في تلك المدينة قد اهتبلت تلك الأحداث التي ألت بالرسول فأدخلت على قلبه الحزن الشديد - مات عمه وزوجه ، ولقي من ثقيف ما لم يتوقعه - وأخذت تصب العذاب على كل من آمن به وتفكر جدياً في قتله . فكان دخوله مكة بعد رحلة الطائف مخفوفاً بالمخاطر الجسيمة وكان الحوار ضرورياً لتجنبها حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وفاجأ الرسول قريشاً بحديث الإسراء والمعراج فما أذعنت ولكنها أمعنت في ضلالها وشركها ، ولكن الرسول مع كل ما واجهه من صعوبات واعتراض طريقه من أشواك وعقبات لم يسيطر القنوط عليه ، ولم تزده الشدائد إلا ثباتاً في اليقين ومضاء في العزيمة وأملاً دانياً في النصر والخير . لقد كان الرسول منذ أمر بالجهري بالدعوة يحدث القبائل التي تفد إلى مكة في كل موسم من مواسمها ، غير أنه كان يقابل بالإعراض

والنفور وكانت حجة هؤلاء : « قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ؟ » وهي حجة داحضة وكان المنطق يقضى بالنظر فيما يدعوهم إليه دون أن يكون موقف قومه منه دليلا لازوارهم عنه وتكذيبهم له .

وخرج الرسول في موسم الحج بعد رحلة الطائف يعرض نفسه على القبائل كما هي عادته ، فلقى عند العقبة (١) ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج فدعاهم الرسول إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فهفت قلوبهم إليه ، وكان لما قالته اليهود في المدينة عن النبي الذي قد أظل زمانه أثر في استجابتهم لما دعاهم إليه ، وكان مما قاله بعضهم لبعض : هذا والله انذى تهددكم به يهود ، فلا يسبقونا إليه ، فأسلموا به وبايعوا (٢) .

وكان هؤلاء نفر الذين هداهم الله إلى الإسلام . هم دعاة محمد في يثرب ، وفشى بين الأنصار خبر الدعوة الجديدة وتلهفت الأفتدة للقاء الرسول ، فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا منهم خمسة من الذين لقوا الرسول في العام المنصرم ، فأسلموا وبايعوا ، وكانت بيعتهم عمادها وحدانية الله والبعد عن المعاصي ، ولذا تسمى بيعة النساء ؛ لأنها لم تكن على القتال .

وهدى الله بعد هذا إلى الإسلام من أهل يثرب من هدى ، وكثر أتباع محمد وأنصاره في هذه المدينة ، وتضاعف لطف القلوب على لقاء الرسول ورؤيته ، فلما كان موسم الحج التالى خرج جماعة من الأنصار للقاء النبي صلى الله عليه وسلم مستخفين لا يشعر بهم أحد ، ولقيهم

(١) موضع على يسار الطريق القاصد منى من مكة .

(٢) الدرر ص ٧١ .



الرسول ليلاً عند العقبة ، وكانت مبايعة هؤلاء الرسول على الإيمان والنصرة ، أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبنائهم ، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه (١) . وكان جملة من بايع الرسول في هذه المرة سبعين رجلاً وامرأتين .

وكانت قريش قد عرفت بإسلام بعض الأنصار وأدركت أن محمداً قد وجد لدعوته تربة تستجيب لها وتحتضنها ، فبالغت في إيذاء من آمن من أهل مكة ، فأمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة ، فخرجوا أرسالاً إليها ، وتحركت الجاهلية بسرعة واتسمرت في ناذيها لتطفئ النور الذي جاء يهدي للتي هي أقوم ، لقد أرادت أن تقتل الرسول واتخذت لذلك خطة تجعل الدم الزكي مفزقاً بين القبائل فلا يقدر أحد على المطالبة به أو الثأر له ولكن الله العلي القدير حفظ نبيه من مكر الجاهلية ليشتر الضياء ، وتطمس الأصنام ولو كره الكافرون « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (٢) .

\* \* \*

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٤ .





## أسباب الهجرة

يتضح مما أسلفت في الحديث عن مراحل الدعوة قبل الهجرة أن أسبابها كلها ترجع إلى موقف قريش من الدعوة الجديدة وإسرافها البالغ في تعذيب من آمن بها وإقدامها في إصرار وعزم على قتل الرسول ما دامت كل الوسائل التي لجأت إليها للحيلولة بين محمد وبين ما يدعو إليه قد باءت بالهزيمة .

إن عقلية الجاهلية التي أدخلت إلى مواريث الآباء وتقديس الأصنام والأوثان واجهت دعوة التوحيد والوحدة في جمود وصلف ، لم تحاول أن تنظر إليها نظرة تدبر مخلص وموازنة واعية بين ما تعكف عليه من معبودات لا تملك لها نفعا ولا ضرا وتقاليد فاسدة وأخلاق منحلة ، وما جاء به محمد من عبادة إله واحد لا شريك له ، رب كل شيء وخالق كل شيء ، بيده الأمر كله وإليه المآب ، وما جاء به كذلك من نظم إنسانية تهذب السلوك وتوثق بين الناس روابط المحبة والإخاء وتجعل المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، فضلاً عن معجزته الخالدة التي أفحمت العرب وهم فرسان القول وأرباب البيان ، لقد أخذوا ببلاغة القرآن وروعة أسلوبه وكان صناديدهم يخرجون في جوف الليل ليسمعوا آيات الله يتلوها محمد ، وكانوا يفعلون ذلك حتى لا يراهم عامة أهل مكة ، ومن عجب أن هؤلاء السادة كان كل منهم لا يخبر أخاه بما يفعله ، ولا يجد لديه الشجاعة في الاعتراف بما يقوم به ، وفي إحدى الليالي أبصر بعضهم بعضاً وكان بينهم حديث ينم عن حبهم لهذا القرآن المجيد ، ولكن عصبية الجاهلية سولت لهم أن

يناوئوا محمداً ودعوته ، وتجلت هذه المناوأة في ذلك الصلف الأحمق الذي اتخذ الاضطهاد والتعذيب بلا رحمة سبيلاً لمنع انتشار الإسلام وحمل هؤلاء الذين اهتدوا وآمنوا على الكفر بمحمد والبعد عنه .

لقد أسرفت الجاهلية في ضلالها وإجرامها حتى أصبحت مكة بالنسبة لمحمد ومن آمن به بلد الهوان والحرمان ، وتأكد أن سادتها قد أصروا على الشرك إصراراً وأن البقاء بينهم لن يثمر غير مزيد من الطغيان يقع على هؤلاء الضعفاء والذين نبدوا عقائد الأجداد والآباء واعتصموا بالحق ، واستمسكوا بعروة الإيمان الصحيح .

وكانت مكة مع هذا من أحب بلاد الله إلى رسوله وأصحابه ، وقد روى أن الرسول بعد أن خرج ليلاً من مكة قال : والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إلىّ ، ولولا أن قومك أخرجنى منك ما خرجت .

غير أن حب الله وحب نصرته دينه وتبليغ دعوته أقوى مما عداه من حب الأهل والوطن والمال والجاه والسلطان .

إن عقيدة الإيمان إذا عمزت قلباً أصبح لا يشغله في هذه الحياة سوى الانتصار لهذه العقيدة بكل وسيلة حتى ولو كانت الحياة نفسها ، وما حققت البشرية في تاريخها كله انتصاراتها المختلفة إلا عن طريق عقيدة راسخة بصرف النظر عن لون هذه العقيدة وقيمها .

وطوعاً لمنهج القرآن الكريم في إثارة الإجمال والإيجاز في أغلب الشأن أشارت بعض الآيات الكريمة إلى أسباب الهجرة إشارات تعتمد على اللفظة الموحية والكلمة الجامعة .

ويجدر القول قبل الحديث عن تلك الإشارات بأن القرآن الكريم في الفترة المكية - وهي فترة بلغت ثلاث عشرة سنة - نزل منه أكثر



من (١) نصفه . ولم يشتمل ما نزل في هذه الفترة على كثير من التشريع الفقهي ، فقد كان المقصود مما نزل هو الدعوة إلى الله وتوحيده ، ونبذ ما كان يعبد الناس قبل الإسلام من مختلف المعبودات ، وإقامة الأدلة على ذلك ، وعلى وجود الدار الآخرة ، وتسلية الرسول فيما كان يلقاه في سبيل الدعوة بضرب الأمثال له بقصص أسلافه من الرسل والأنبياء ، أما التشريعات الفقهية التفصيلية فقد نزل الجانب الأكبر منها في السور المدنية ، وهي بالنسبة لمجموع القرآن أكثر من الثلث بقليل .

\* \* \*

بعد هذه الكلمة الحاطقة عن موقف القرآن من المشركين قبل الهجرة ، أشير إلى بعض تلك الآيات التي عبرت في إجمال وشمول عن الأسباب التي حملت المؤمنين برسالة الإسلام على أن يفروا إلى الله بدينهم تاركين وراءهم ذكريات الطفولة وملاعب الصبا ، وكل ما لهم في مكة .  
تحدث الآية ١٩٥ من سورة آل عمران عن المهاجرين فتقول :  
« . . قالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي » فبناء الفعل للمجهول في أخرجوا يدل على أن المسلمين أجبروا (٢) على الخروج

---

(١) جاء في تاريخ التشريع الإسلامي للمرحوم الشيخ الحضري ص ٨ أن مكى القرآن نحو ١٩ منه ، وأن مدنيه ١٣ .

(٢) يرى عالم تونس الشيخ الطاهر بن عاشور أن المؤمنين هاجروا اختياراً ( انظر مجلة هدى الإسلام العدد ١٨ ص ٢١ ) وهذا صحيح بمعنى أن قريشاً لم تأمرهم بترك مكة بل كانت حريصة على بقائهم فيها حتى لا ينقلبوا عليها بعد ذلك ويأخذوا حقهم منها ، ويقضوا على أصنامها وتراث آبائها ، ولكن موقف قريش الجائر هو الذي حمل هؤلاء المؤمنين على الهجرة ، ومن ثم فهم وإن هاجروا اختياراً في الظاهر إلا أنهم في الواقع أكرهوا وأجبروا على ترك مكة .

من ديارهم ، أجبرهم الظلم والإثم والكفران والطغيان .

وورد هذا الفعل بصيغة المبني للمجهول في الآية الثامنة من سورة الحشر للدلالة على نفس المعنى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم . . . »

وفي سورة النحل جاء في الآية ٤١ : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا . . » فالمهاجرون ظلموا قبل هجرتهم ، ظلمهم المشركون ظلماً متعدد الدرجات ، متنوع الأشكال . بيد أن الآية لم تفصل أنواع الظلم وكيف وقع على هؤلاء المجاهدين الصابرين ، وهي بهذا أشمل في الدلالة وأبلغ في المعنى ، وأوقع في النفس وأعمق في الحس .

وأما الآية ١١٠ في سورة النحل أيضاً : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا فتحدث عن فتنة المهاجرين قبل هجرتهم . وللمفسرين في بيان معنى الفتنة المذكورة في الآية آراء مختلفة (١) ، بعضها يذهب إلى أنها العذاب بقصد الردة ، وبعضها الآخر يذهب إلى أن بعض المسلمين أعطى الكفار ما أرادوا بلسانه مكرهاً فكأنهم بذلك قد فتنوا أنفسهم ، مثل ما روى عن تعذيب عمار بن ياسر ، فقد شدد الكفار عليه العذاب ومن ذلك أنهم كانوا يطرحونه على الأرض في الظهيرة أيام القيظ - وجر مكة يذيب ذنب الضب كما يقولون - وأحياناً مع هذا يضعون الصخر على صدره . ويقولون له لا نتركك حتى تسب محمداً وتقول في اللات والعزى خيراً ، ففعل مرة فتركوه - ولعله لم يفعل ما أراده الكفار إلا بعد أن أشقى على الهلاك - ولكنه انطلق

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٨٠ ، ١٩٢ ، والآلوسي ج ٤ ص



إلى النبي صلى الله عليه وسلم باكياً ، فقال له الرسول : ما وراءك ؟ فقال عمار : شرياً رسول الله ، وحكى له ما صدر عنه ، فقال له الرسول : كيف تجد قلبك ؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان ، فقال : يا عمار إن عادوا فعد ، فأنزل الله تعالى : « إلامن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

ومهما تبأينت الآراء في تفسير معنى الفتنة فهي تدور في فلك الاضطهاد والأذى الذى صبه المشركون على المؤمنين .

وكان أذى المشركين يتخذ أحياناً صوراً مختلفة من السخرية والاستهزاء والادعاء . وقد ذكر الكتاب العزيز طرفاً من هذا الأسلوب الذى تجرد من الخلق والتهذيب واتسم بالوقاحة والتطاول وسوء الأدب : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين » (١) .

فهؤلاء الطغاة لم يكتفوا بما كان منهم من تعذيب واضطهاد لمحمد وأصحابه ، ولكنهم فى فجورهم وإجرامهم لا يقفون عند حد ، فهم كما أشارت الآيات الكريمة يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم وسخرية منهم ؛ إما لفقرهم وراثته حالهم ، وإما لضعفهم عن رد الأذى ، وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء ، فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا ، وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المردولة ، وهم يسلطون عليهم الأذى ، ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضع مما يصيب الذين آمنوا وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين .

وكان هؤلاء المجرمون الأوغاد يتغامزون على المؤمنين بالعين أو باليد أو بحركة ما متعارفة بينهم للسخرية والإيذاء ، يريدون بذلك أن يدخلوا على قلوب المؤمنين الذلة والمهانة والانكسار .

وإذا انقلب هؤلاء الأوغاد إلى أهلهم بعد أن نالوا من المؤمنين ما نالوا من السخرية والإيذاء ، انقلبوا فكهين ، راضين عن أنفسهم ، فرحين بما فعلوا مستمتعين به فلم يتلوموا ولم يندموا ، ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا ، وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير .

ومن عجب أن يتحدث هؤلاء المجرمون عن الهدى والضلال ، وأن يقولوا حين يرون المؤمنين : « إن هؤلاء لضالون » ولكنه الفجور والادعاء والتطاول لا يقف عند حد ولا يستحي من قول ، ولا يتلوم من فعل .

ويسخر القرآن بعد هذه الإشارات إلى مواقف الإجرام الوضيعة من هؤلاء الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم ، ويتطقلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر — فما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين ، وما أقيموا عليهم رقباء ، ولا كلفوا وزهم وتقديرهم : « وما أرسلوا عليهم حافظين » .

وتنتقل الآيات إلى الحديث عن مشهد آخر ، مشهد الذين آمنوا يوم القيامة مع الكفار « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون » اليوم يجازي المؤمنون بالنعيم المقيم ، والكافرون بنار الجحيم ، اليوم يضحك الذين آمنوا من الذين أشركوا ، ثم يتوجه القرآن بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » هل وجد هؤلاء الجاحلون المكابرون ثواب ما فعلوا



إنهم يقاسون العذاب الأليم في نار الجحيم ، وهذا جزاء ما فعلوا ، فهو ثوابهم ، إذن ، غير أن التعبير بكلمة ثواب في هذا المقام فيه من السخرية ما فيه بهؤلاء الكفار .

وسجل القراج الكريم في آيات كثيرة بعض مواقف قريش من الرسول ، وأشار إلى ما كان يشعر به النبي من ألم نفسي حاد لأن قومه في غيهم وضلالهم يعمهون ، وهو حريص أشد الحرص على أن يأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل .

لقد سخرُوا منه وتوعده بالهلاك حين ناداهم وأخبرهم بأنه رسول من الله إليهم ، ثم أمعنوا بعد ذلك في سخريتهم وتهكمهم وإيذائهم ، فهو كما يزعمون ليس أهلاً لهذا الفضل الذي أسبغه الله عليه ، « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، وما دروا أن الله يختار لوجيه ما يشاء وأنه سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته وأن مراتب الناس لديه لا تخضع لأعراف الناس ومقاييسهم من الجاه والمال : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولجأ المشركون إلى اتهام الرسول بالكهانة والسحر وأن الذي يأتيه شيطان من الجن لا ملك من السماء . وحاولوا إعناته وإحراجَه بما طلبوا منه من أمور تدخل في باب الخوارق والمستحيلات ، وقالوا عن القرآن : « أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » ، إلى غير ذلك من الأقوال والأفعال التي أحزنت الرسول أشد الحزن . فقومه ينفرون منه ويتقولون عليه وهو يدرك مبلغ ما هم فيه من ضلالة ، ويرجو لهم أن يسلكوا طريق الهداية ، لقد كان حريصاً كل الحرص على أن يعتصم قومه بما يدعوهم إليه ، ومن ثم كان حزنه الشديد لما صدر عنهم من أقوال وأفعال .

وأشار القرآن الكريم إلى مشاعر الرسول الإنسان ، وإلى تلك السنة التي لا تتخلف مع الأنبياء والمرسلين سنة الجحود والتكذيب والإيذاء ، وإلى أن يتأسى محمد بمن بعث قبله من المرسلين في الصبر والإغضاء : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين . » (١) « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » (٢) .

وحيث بان لقريش أن أتباع محمد قد أخذوا يفرون من مكة ويذهبون إلى يثرب ، هالها الأمر وأفرعها ، وأيقنت أنها إن لم تتخذ موقفاً حاسماً من محمد فإن حياتها ستعرض لخطر جسيم يهدد أمنها ووجودها .

إن الأنصار في يثرب أهل حرب فإذا انضم إليهم هؤلاء المؤمنون الصابرون وعلى رأسهم محمد فإنهم سيعملون لا محالة على غزو قريش والانتقام منها ، أو على الأقل سيقطعون عليها طريق تجارتها إلى الشام ، وهي شريان وجودها فلا حياة لها بدونها .

وكان المؤمنون في مكة يتسللون إلى إخوانهم الأنصار وعجزت قريش عن صدهم والحيلولة بينهم وبين ما يرغبون فيه ويشتاقون إليه ، ولكن محمداً ما زال بين أظهرها فهل تركه ليلحق بأتباعه لتقع الكارثة التي لا قبل لها بدفعها .

إن الأمر جلل والخطب جسيم ولا بد من اجتماع عاجل يضم

(١) الآية : ٣٣ ، ٣٤ في سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٣٥ في سورة الأحقاف .



السادة ليتشاوروا فيما يجب أن يقوموا به نحو محمد حتى لا يكون لقريش بعد ذلك إلا الحزى والعار والفقر .

وغدوا إلى دار الندوة وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون ، ووقف أبو البختري بن هاشم فقال : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله . زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

ولم يلق هذا الرأي قبولا أو استحساناً ورد عليه من قال : لن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلاؤشكوا أن يشبوا عليكم فينزعوهم من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأى فانظروا في غيره .

واقنع المجلس بهذا القول ، وأيقن أن رأى أبي البختري فاسد ، فوقف أبو الأسود ربيعة بن عامر وقال : الرأي عندي أن نخرجه من بين أظهرنا فننفيه ، فإذا خرج عنا - فوالله ما ندرى أين ذهب ، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه - أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

ولم يلق هذا الرأي كسابقه قبولا . وأكد فسادَه وسخفه ما قاله بعض المؤتمرين : ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يبطأكم بهم في بلادكم . فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأياً غير هذا .

وهنا يقول أبو الحكم بن هشام : والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد ، أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شاباً جليداً نسباً

وسيطاً<sup>(١)</sup> فينا ، ثم نعطى كل قتي منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فتستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً . فلا يقدر بنو عبد مناف - رهط محمد - على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل<sup>(٢)</sup> ففعلنا لهم .

وخلب هذا الرأي لب المجلس ، وارتضوه ، وتواصوا بسريته ، وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون على تنفيذ ما ارتآه أبو الحكم بن هشام<sup>(٣)</sup> .

ولكن الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء أخبر نبيه بما كان من قريش فى دار الندوة ، ونزلت على الرسول بعد ذلك آية قصيرة<sup>(٤)</sup> تعبر بأبلغ تعبير عن تأمر سادة قريش ، وترسم صورة عميقة التأثير لذلك المكر والتدبير الذى أطبقت عليه كلمة المؤتمرين ، وما علموا أن الله من وراءهم محيط بمكر بهم ويبطل كيدهم ، وهم لا يشعرون « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك<sup>(٥)</sup> أو يقتلوك أو يخرجوك ،

( ١ ) جليداً : قوياً ، نسياً : شريفاً ذا حسب معروف ، وسيطاً : يقال هو وسيط فيهم : أوسطهم نسباً وأرفعهم مجداً .

( ٢ ) العقل : الدية .

( ٣ ) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٩ ، ومجلة الثقافة العدد ٥٩ .

( ٤ ) نزلت هذه الآية فى المدينة بعد غزوة بدر ، ولم تنزل عقب ندوة قريش كما يرى بعض المفسرين ، وكان نزولها بعد هذه الغزوة تذكيراً بما كان من خوف وقلق فى الماضى وما عليه الرسول فى الحاضر من أمن وطمأنينة .

( انظر تفسير المنار ج ٩ ص ٦٥٢ ، وتفسير سورة الأنفال للأستاذ

الدكتور مصطفى زيد ص ١٢٤ ط . الرابعة )

( ٥ ) أى ليحبسوك أو يوثقوك .

ويعكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» (١) . لقد ائتمرت قريش هذه المرة على أن تتخلص من الرسول بحبسه أو قتله أو إخراجه مغلوباً على أمره ، واختارت القتل على أن يتولى ذلك الإثم فتية من القبائل جميعاً ليتفرق دمه فيها ، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها ، فيرضوا بالدية ، وينتهي الأمر .

وعبرت الآية الكريمة عن موقف قريش في دار الندوة بالمكر ، كما عبرت عن إحباط الله لما كان من قريش بالمكر أيضاً والله خير الماكرين .

ولما كان المكر في معناه (٢) اللغوي يدل على تدبير الشر للغير في خفية ، والاحتيايل لإيقاع الأذى به (٣) ، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن إضافة المكر إلى الله سبحانه جاء على طريق المشاكلة في اللفظ ومزاوجة الكلام (٤) ، كما قال سبحانه : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، والثاني ليس باعتداء ، وإنما هو جزاء (٥) .

إن المكر قبيح والله تعالى لا يتصف إلا بكل كمال وإنما جاز في تلك الآية - في رأى الجمهور - وصفه سبحانه بالمكر ليقابل مكر الناس ، فهي مشاكلة لفظية ووجه من وجوه البلاغة في القرآن الكريم .

( ١ ) الآية : ٣٠ في سورة الأنفال .

( ٢ ) انظر معجم ألفاظ القرآن ج ٦ ص : ٤٥ إخراج مجمع اللغة العربية .

( ٣ ) المرجع السابق .

( ٤ ) تفسير البحر المحيط ج ٢ ص : ٤٧٢ .

( ٥ ) مجمع البيان في تفسير القرآن - المجلد الأول - ص : ٤٤٩ .



ومع تقدير هذا الرأي فإن مادة « مكر » في الكتاب العزيز قد وردت في أكثر من أربعين موضعاً ، وإن كان أكثر ورودها جاء في معرض الحديث عن مكر الكفار بالرسول ، إلا أنه في بعض الآيات ورد المكر مضافاً إلى الله سبحانه من غير مقابلة بمكر الناس « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » (١) .

كما نعت المكر في آية أخرى بما يفيد أنه ليس دائماً قبيحاً أو مكروهاً « استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » (٢) فهذا يعطى أن من المكر ما قد يكون حسناً وليس بلام أن يكون أبداً سيئاً . .

وجاء في كتاب « بصائر ذوي التمييز » (٣) في لطائف الكتاب العزيز « للفيروز آبادي صاحب القاموس أن المكر ضربان : محمود ، وهو ما يتحرى به أمر جميل ، وعلى ذلك قوله تعالى : ومكر الله والله خير الماكرين ، ومذموم ، وهو ما يتحرى به فعل ذميم نحو قوله تعالى : ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » .

ولهذا كله فإن المشاكلة اللفظية التي ذهب إليها الجمهور لنفي فعل القبيح عن الله سبحانه إن جاز قبولها في تلك الآيات التي ورد فيها مكر الله في مقابلة مكر الناس فإنه لا يمكن قبولها في تلك الآيات التي لم يرد فيها المكر على صورة المقابلة ويكون تفسير صاحب القاموس أولى بالأخذ والقبول .

(١) الآية : ٩٩ في سورة الأعراف .

(٢) الآية : ٤٣ في سورة فاطر .

(٣) ج ٤ ص : ١٦٥ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

إن الله تبارك وتعالى رحيم بعباده ومن رحمته بهم أن يحول بينهم وبين ما يقدمون عليه من شر ومنكر ، وهؤلاء الطغاة الذين دبروا ومكروا قد أبطل الله مكبرهم وكيدهم لتبدأ البشرية عهداً جديداً في تاريخها وحياتها عهداً يتسم بالحرية والكرامة والعلم ، وهذا فضل من الله عظيم .





## فى الطرىق إلى المدينه

— ١ —

فى السنه التاسعه بعد الهجره بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت له جموعاً كثيره على أطراف الجزيره بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنه وانضمت إليه لحم وجذام وغسان وعامله من قبائل العرب ، وزحفوا وقدموا مقلماهم إلى البقاء وعسكروا بها (١) .

ويبدو أن هؤلاء لما علموا بفتح مكه ، وما تلاه من بعض الغزوات والسرايا ، أيقنوا أن جيوش محمد ستدهمهم فى ديارهم إن عاجلا أو آجلا ، فأرادوا أن يهاجموه قبل أن يهاجمهم ، ويقضوا عليه قبل أن يقضى عليهم ، لذلك أعدوا عدتهم وجمعوا جموعهم ، وزحفوا ليلقوا محمداً وأصحابه أولئك الذين أصبحت لهم فى الجزيره منزله السيادة والقيادة .

واستنفر الرسول الناس إلى الجهاد ، وحضهم عليه وكان عليه السلام قلما يغزو غزه إلا ورى غيرها مكيدة فى الحرب ، بيد أنه فى هذه الغزوه — غزوه تبوك — صرح بها للناس لبعده الشقة بينه وبين عدوه ، ولقوة هذا العدو وكثرته ، ولشدة الحر وقلة الأموال فى الأيدى فقد كان

---

(١) إمتاع الأسماع للمقرئى ج ١ ، ص : ٤٤٦ ، والبلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى (معجم البلدان — المجلد الأول ، ص ٤٨٩ ط بيروت) وهى الآن المنطقه الشماليه الغربيه من الأردن .

العام عام جذب<sup>(١)</sup> ، ومن ثم تسمى هذه الغزوة غزوة العسرة أيضاً ، وهي آخر غزوة غزاها محمد صلى الله عليه وسلم .

ولهذا كله انطلق المنافقون ، ومن في قلوبهم مرض للتعبير عن أحقادهم وخبث ضمايرهم ، فالفرصة أمامهم — كما يظنون — مواتية لضرب الإسلام ضربة قاصمة وتعريض محمد ومن يخرج معه للحرب الروم لخطر لا قبل لهم به ، فتدور الدائرة عليهم ، وهذا غاية ما يطمع فيه النفاق ، لقد أخذ المنافقون يخذلون الناس ويقولون لهم لا تنفروا في الحر ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة فعذوكم هذه المرة من نوع آخر في الكر والفر والعدد والعدة ، وذهب بعضهم إلى الرسول يستأذنه في التخلف لأعذار واهية ، فقبلها منهم وأذن لهم ، وهؤلاء كانوا يبغون من هذا أن يكونوا لسواهم قدوة في القعود ، وقد نجح المنافقون بعض النجاح في كيدهم وحقدهم فتخلف عدد من المؤمنين ، وكادت تزيف قلوب فريق من الأنصار والمهاجرين ، لولا فضل الله ورحمته بهم ، ومع هذا فصل الرسول عن المدينة بجيش عظيم ، ليلقى به الروم في تبوك<sup>(٢)</sup> .

## — ٢ —

ولست هنا في مجال الحديث عن هذه الغزوة ، وكيف أبلى المؤمنون فيها بلاء حسناً فأضافوا إلى سجل جهادهم صفحة مشرقة بالبذل

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير ، ص : ٢٥٢ .

(٢) تبوك — مكان بين المدينة ودمشق ، ويبعد عن المدينة بنحو ٦٠٠

كيلومتراً .

والفداء ، ولكنى أردت بهذا أن أقول إن الله تبارك وتعالى حين كشف أمر هؤلاء المنافقين فى سورة التوبة ، وبين لهم أنه سبحانه ينصر أوليائه وإن تمالاً عليهم الأعداء ، وكاد لهم المنافقون - ذكر لهم حادثة الهجرة فهى أبرز مثل على نصر الله لأنبيائه وأوليائه « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » (١) .

وهذه الآية الكريمة فضلاً عن أنها تقرر نصر الله لرسوله فى ظروف تجمع فيها لعدوه كل ما يعرف الناس حيثئذ من أسباب الغلبة دون أن يجتمع له منها سبب واحد تكاد بأسلوبها المعجز تتحدث فى إجمال عن طرف من أحداث الهجرة : فهى قد أشارت إلى أن الرسول قد أخرجه قومه بعد أن يشس منهم ، وبعد أن أحالوا مكة كلها وما يحيط بها من بطاح وهضاب ميداناً لمعركة رهيبة تطلب دم النبي عليه السلام ، وليس معه من الأعوان سوى رجل واحد أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين .

لقد قررت قريش أن تتخلص من الرسول ، فأطلعه الله على ما ائتمرت ، وأوحى إليه بالخروج وحيداً إلا من صاحبه الصديق لا جيش ولا عدة ، وأعداؤه كثرة وقوتهم إلى قوته ظاهرة .

ويخرج الرسول فى جنح الليل مع صاحبه ويأويان إلى الغار والقوم على أثرهما يتعقبون والصديق - رضى الله عنه - يجزع لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليهما ، فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب يقول : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، ويرد



الرسول وقد أنزل الله سكينة على قلبه ، يهدى من روع صاحبه  
« يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، « إذ هما في الغار إذ يقول  
لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » . .

وكانت العاقبة — والقوة المادية كلها في جانب ، والرسول صلى الله  
عليه وسلم مع صاحبه منها مجرد — النصر المؤزر من عند الله بجنود  
لم يرها الناس ، وكانت الهزيمة للذين بغوا وكفروا « وجعل كلمة الذين  
كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا » .

وللمفسرين <sup>(١)</sup> في بيان المعنى بالسكينة التي أنزلها الله ، وكذلك  
في المقصود بالجنود التي أيد بها ، آراء لا تخلو من الإسراف وتجاوز القصد  
في الشرح والتأويل ، فمنهم من ذهب إلى أن أبا بكر رضى الله عنه  
هو الذى أنزل الله سكينة عليه ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن  
جزعاً ولا مضطرباً ، فهو واثق من نصر الله بدليل ما جاء في الآية من  
قوله لصاحبه : « لا تحزن إن الله معنا » .

وذهب آخرون إلى أن الله سبحانه أنزل سكينة على نبيه عليه السلام ،  
وليس بلازم أن يقتضى إنزال السكينة على الرسول أن يكون خائفاً  
أو منزعجاً ، وقوى هؤلاء رأيهم بأن التأييد بالجنود لا يصح إلا للنبي  
صلى الله عليه وسلم ، وأن عطف جملة « وأيده بجنود لم تروها » على

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٨ ص : ١٤٨ ، وتفسير الآلوسى ج ٣  
ص ٣٠٨ ط بولاق ، وتفسير المنار ج ١ ص : ٤٢٩ ، والسكينة هي الهدوء  
وطمأنينة القلب وخشوعه ، أو الوقار والسكون الذى ينزله الله في قلب عبده عند  
اضطرابه من شدة المخاوف ، فلا يزعج بعد ذلك لما يرد عليه ، ويوجب له  
زيادة الإيمان ، وقوة اليقين والثبات .

( انظر بصائر ذوي التمييز ج ٣ ص : ٢٣٨ ) .

ما قبلها يؤكد أن المقصود بالجملة المعطوف عليها وهي « فأنزل الله سكينته عليه » هو الرسول وليس صاحبه ، فالأصل في هذا العطف الترابط والتعاقب لا التفكك والتفريق . .

والذي أرجحه أن الضمير في قوله تعالى : « فأنزل الله سكينته عليه » يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فالآية كلها جاءت في معرض الحديث عن حماية الله ونصره لنبيه ، فكل الضمائر الواردة بها ترجع إلى الرسول الكريم لا إلى أحد سواه .

ويرى كثير من المفسرين أن الجنود التي أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم هي الملائكة الذين ستروه هو وصاحبه من أعين الكفار عندما خرجا ليلاً من مكة ، وعندما لحا إلى الغار يقيمان فيه حتى يسكن الطلب عنهما ، ولكن قصر معنى الجنود في الآية على الملائكة غير سديد . لأن جنود الله قد تكون ملائكة ، وغير ملائكة ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

وقد قرأ بعض القراء<sup>(١)</sup> « وكلمة الله » بالنصب ، إلا أن قراءة الجمهور بالرفع ، وهي أقوى في المعنى لأنها تعطى معنى التقرير ، فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلاً بدون تصوير متعلق بحادثة معينة .

وما يستنبه النظر في هذه الآية الكريمة التي تحدثت عن طرف من أخبار الهجرة تكرر الظرف « إذ » ثلاث مرات فيها :

إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين

إذ هما في الغار

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٨ ص : ١٤٩ ، وتفسير المنار ج ١٠ ص

إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .

وكان هذا التكرار بمثابة التنبيه والتذكير لهؤلاء المشبطين والمناققين بحماية الله لنبيه ونصره له في أحلك الظروف ، وأشدّها خطراً ، عليهم أن يفيثوا إلى أنفُسهم ويدركوا أن تخلفهم وكيدهم لا يدفع النصر أو يسبب الهزيمة ؛ لأن الله ينصر رسله وأوليائه وهو سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد <sup>(١)</sup> » .

وفضلاً عن كل هذا فإن تكرار « إذ » في المرة الثالثة إشارة إلى حقيقة هامة ، وهي أن سبيل النصر الاعتقاد الصادق بالحق والعمل به ، وأن كل ما عرف الناس من وسائل القتال إنما هي في نظر المؤمن أدوات مغلولة معطلة بإزاء ما يملأ قلبه من ثقة بربه عز وجل <sup>(٢)</sup> .

### — ٣ —

على أن هذه الآية الكريمة إذا كانت قد تحدثت عن نصر الله لنبيه في ذلك الظرف العصيب ، فإنها بينت أن هذا النصر الذي وعد الله به أوليائه وأصفياه مرتبط بما يبذله هؤلاء من جهد ، وما يقدمونه من سعي ، فالإيمان الصادق لا يعرف التواكل والتخاذل ، ويفرض على المرء أن يلجأ إلى الله يسأله الرعاية والحماية بعد أن يكون قد قدم بين يدي دعائه ما يمكن أن يقدر عليه من عمل يدنيه من غايته ورجائه .

(١) الآية : ٥١ من سورة غافر .

(٢) مجلة الوعي الإسلامي - العدد ١٣ ص : ١٥ .



وإذا لم يدخر المؤمن وسعاً فيما يجب عليه أن يباشره من الأسباب ،  
ثم واجه مالا قدرة له على دفعه ، فإن تأييد الله له يمنعه مما هو عاجز  
عن التغلب عليه ، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام ، دعا قومه إلى عبادة  
الله ، وترك عبادة الأصنام ، فأعرض قومه عنه ، ولما وجدوه لا يقلع  
عن السخرية بهم وبآلهم ، أرادوا أن يتخلصوا منه بإلقائه في النار  
« قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » <sup>(١)</sup> ، ولم يستطع إبراهيم  
أن ينجو من براثن قومه ، فقد تمكنوا منه ، وأعدوا له ناراً حامية ،  
ثم قذفوه فيها ، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذ نبيه من كيد قومه ،  
« قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم  
الآخسرين » <sup>(٢)</sup> .

ومن ثم فإن محمداً صلى الله عليه وسلم بعدما أطلعه ربه على ما طبقت  
عليه قریش في دار الندوة . وبعد أن أذن له بالهجرة إلى يثرب ، فكر  
ملياً في هذه الرحلة الشاقة ، واتخذ الأسباب التي تكفل لها النجاح ،  
مع ثقة لا حد لها في وعد الله بالحماية والنصر .

إن الرسول يدرك أن قریشاً قد أعدت عدتها لتنفيذ قرارها ، وأن  
بالها لن يهدأ حتى تنفذ ما انتهت إليه ، وأن مجرد خروجه من مكة  
لا يعني نجاة من الخطر ، لأنه سيطارده في مخارم الجبال والأودية ،  
والمسافة بين مكة والمدينة ليست قصيرة فهي تبلغ نحو ٤٠٠ كيلومتراً  
في ذلك العصر ، فكان عليه أن يخطط لهجرته ويحتاط لكل الاحتمالات ،  
وإن بدا ما قام به الرسول إزاء قوة قریش أمراً هيناً إلا أنه كان لازماً —  
فضلاً عن تأييد الله ونصره — لكي يصل محمد صلى الله عليه وسلم

( ١ ) الآية : ٦٨ في سورة الأنبياء .

( ٢ ) الآية : ٦٩ - ٧٠ في سورة الأنبياء .

إلى يثرب ومعه صاحبه دون أن تنال قريش منهما ما تريد .

وتمثلت الحطة التي وضعها الرسول ليفوت على قريش هدفها فيما يلي :

أولاً : سرية اللحظة التي خرج فيها من مكة ، أو بعبارة أخرى تضيق دائرة الذين يعرفون هذه اللحظة بحيث لم تشمل سوى أفراد (١) قلائل ممن لا يشك في إخلاصهم وصدق جهادهم .

ثانياً : خداع قريش والتجسس عليها للوقوف على خططها بعد أن عجزت عن قتل الرسول وهو في بيته حتى يأخذ حذره ، ويتصرف طوعاً لما تدعو إليه الأحداث وتوحي به الأخبار .

فقد انطلق الرسول الكريم إلى منزل أبي بكر متقنعاً (٢) في ساعة لم يكن يأتيه فيها ، لقد جاء إليه وقت الظهيرة ، وما كانت عادته أن يذهب إلى صاحبه في هذا الوقت ، وصدقت أحاسيس أبي بكر حين رأى الرسول مقبلاً ، فأحمله على المجيء بالهاجرة إلا أمر خطير ، وما كان تفكير الصديق في غير الهجرة ، فقد سبقه المسلمون إليها ، وكان كلما هم بها وطلب من الرسول أن يأذن له فيها قال له : « لا تعجل لعل الله (٣) أن يجعل لك صاحباً » .

( ١ ) قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلا على بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، وآل أبي بكر .

( سيرة ابن هشام ج ٢ ص : ١٢٩ ) .

( ٢ ) سيرة ابن هشام ج ٢ ص : ١٢٩ ، وزاد المعاد ج ٢ ص ٧٣ :

( ٣ ) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص : ١٧٥ .

ودخل الرسول على أبي بكر وطلب منه أن يخرج من عنده فقال الصديق : إنما هم أهلك ، فقال الرسول : « فإني قد أذن لي في الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، وتهلت أسارى الصديق ، وبكى من شدة الفرح حتى تعجبت من بكائه ابته عائشة ، لما قال الرسول : الصحبة يا أبا بكر .

وكان الصديق بفراصة المؤمن ، وفرط حبه وإخلاصه للرسول يتوقع هذه الصحبة ، ولا سيما بعد أن قال له الرسول لما قال حين سعى إليه ليأذن له في الهجرة ، ودفع هذا أبا بكر إلى شراء راحتين وعلفهما أربعة أشهر استعداداً لهذه الرحلة المباركة . .

## — ٤ —

ومن باب صغير يشبه النافذة في منزل الصديق خرج محمد وصاحبه في جوف الليل ، ومضيا إلى غار بجبل ثور ، ولم يكن يعرف خبرهما غير عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر ، ثم عامر بن فهيرة الراعي الذي قام بدوره في محاولة طمس آثار الرسول وصاحبه إلى الغار ، وأيضاً آثار أسماء ، وهي تحمل إليهما الزاد طيلة المدة التي مكثا فيها في الغار . وذلك أنه كان يدفع بالإبل والغنم في طريق الغار لتبديد آثار أقدامها معالم الصعود إليه أو النزول منه . وكان هناك عبد الله بن أريقط وهو غير مسلم ، لقد استوَجِر ليكون دليل الراكب من غار ثور إلى المدينة ، لخبرته بالطريق ، وكان عليه أن يذهب بالراحتين إلى الغار بعد أن يسكن البحث عن الرسول وصاحبه ومع أن ابن أريقط كان على دين قريش ، وأقام بمكة كل المدة التي مكثها الرسول في الغار أميناً على السر حفيظاً عليه ،



فقد كان خلق الأمانة في العرب أصيلاً على الرغم مما كان شائعاً بينهم في الجاهلية من عادات وأخلاق قبيحة .

وأما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه ، فقد اتشح ببردة الرسول ونام في مكانه ، وكان هذا لوناً من خداع قريش<sup>(١)</sup> - فقد كان الفتيان الذين يحاصرون بيت الرسول يعتقدون أن محمداً في فراشه ، فهم يبصرون فيه شخصاً نائماً ، وشاءت إرادة الله وتأييده لنبيه أن ينام هؤلاء الفتيان « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ويخرج الرسول من بيته ليضع على رؤوسهم التراب وهم كالخشب المسندة ، ثم يهرع إلى منزل أبي بكر لتبدأ الرحلة التي غيرت وجه التاريخ .

وبدت تباشير الصباح ، فافتحم فتیان قريش المنزل المحاصر ، ليفاجأوا برؤية علي في فراش الرسول . ويسألونه عن محمد في غضب فيجيبهم بغير ما يطمعون ، وتموج مكة بالخبر ، لقد نجا محمد من الموت ، وخرج إلى يثرب ، فهل سيركه طغاة مكة يصل إلى مهبجره في سلام وأمان ، إنهم لم يعقدوا ندوتهم إلا بمنعوه من الإقامة بين أنصاره من الأوس والخزرج ، فإذا كان فتیانهم لم ينجحوا في القضاء عليه وجازت حيلته عليهم ، فإن بعد الشقة ووعورة الطريق بين مكة ويثرب يتيح لهؤلاء الطغاة فرصة أخرى في محاولة القتل بمحمد .

وكان أول ما أقدم عليه طغاة قريش هو الذهاب إلى بيت أبي بكر ،

( ١ ) وكان علي قد كلف مع هذا مهمة جلية في مكة فقد كان لدى الرسول ودائع لبعض أهلها لأنه لم يشأ أن يرد بنفسه تلك الودائع أخذاً بالاحتياط وسرية الهجرة ، لذلك قام على برد هذه الودائع إلى أهلها .

ومن العجيب أن يأمن أهل مكة محمداً على أموالهم دون أن يشقوا بما يخبرهم به من وحى السماء ، ولكنها الجاهلية الجهلاء والعصية الحمقاء . .

عليهم يجدون ما يهديهم إلى بغيتهم ، فهم لا يرتابون في أن محمداً قد استعان بالصديق لما بينهما من المحبة والإخلاص .

ذهب هؤلاء وعلى رأسهم أبو جهل بن هشام ، وخرجت إليهم أسماء فقال لها أبو جهل : أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ ، فقالت لهم لا أدري والله أين أبي ، ورفع الحبيث يده ولطم خد أسماء لطمة لا تعرف الرحمة حتى هوى قرطها من شدة تلك اللطمة ، وسالت دماؤها الزكية آية على صدق جهادها وقوة يقينها ، فهي من أعرف الناس بالمكان الذي لجأ إليه الرسول وأبوها ، لأنها كانت تحمل إليهما الطعام إذا جن الليل كل يوم ، وهي التي حلت نطاقها<sup>(١)</sup> وقطعت منه قطعة لتربط به فم الجراب الذي وضع فيه ما أعده أهل بيت الصديق من طعام للرحلة الخالدة ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، أسماء هذه أنكرت أنها تعرف شيئاً عن أبيها ، وما كانت لطمة أبي جهل بمجدية في حملها على أن تقول ما تعلم ، لأن إيمانها أقوى من بطش الجاهلين وإجرام القاسطين .

وأسرع كفار مكة يقتفون الأثر ولكن معاملة لا تستين لهم فقد ذهبت بها غم ابن فهيرة مولى أبي بكر ، فلا يقنطون ويبحثون عن رجال منهم لهم خبرة بالأثر ، ويهتدى هؤلاء إليه ، ويمسكون بخيطه ، فينتهي بهم إلى الغار ، وهنا تبتدى المعجزة ، وينزل تأييد الله فيتحول مدخل الغار إلى عش للحمام ، وبيت للعنكبوت لا يخالج من رآه أدنى شك في أن هذا المكان لم تطأه قدم إنسان منذ كثير من السنين ، وقد روى عن بعض المشركين أنه قال لمن قادوهم إلى الغار وأكدوا لهم أن الأثر انتهى إليه : إن هذا العنكبوت هنا قبل أن يولد محمد .

(١) النطاق : حبل تشد به المرأة وسطها للمهنة .

ويثوب القوم إلى مكة تعلوهم كآبة الهزيمة وتستبد بهم حمية الجاهلية ، فهل تراهب يستسلمون ، ويدعون محمداً وصاحبه ، لا ، فالقلوب التي ران عليها الشرك والعقول التي أبت إلا أن تحيا في ظلام الجهل لا تعرف للأحقاد المسعورة حداً ولا يستقر لها خاطر ما دامت تجد أمامها نافذة للشر ، ولهذا نادت قريش في أعلى مكة وأسفلها : من قتل محمد أو أبا بكر فله مائة من الإبل<sup>(١)</sup> .

إنه جعل ظنت قريش أنه سيطفئ نار غيظها ، ويقدم إليها محمداً وأبا بكر جثة هامدة ، ولكن هيهات ! . . .

ويعرف الرسول وصاحبه وهما في الغار كل ما كان يجري في مكة ، كان عبد الله بن أبي بكر يقضي نهاره مع قريش ، وهو في ذكي ، يسمع ما يأتهم به رجالاتها ، ثم يتسلل في المساء إلى الغار ليخبرهما بما سمع ، ولا جدال في أن هذا كان من عوامل إخفاق قريش ونجاح الهجرة ، لأن الرسول بعد أن عرف ما أقدمت عليه قريش من دفع مائة من الإبل لمن يقتل محمداً أو أبا بكر ، لم يسلك في هجرته طريق يثرب المألوف وإنما سلك طريقاً مختلفة لم تكن في حسابان القوم .

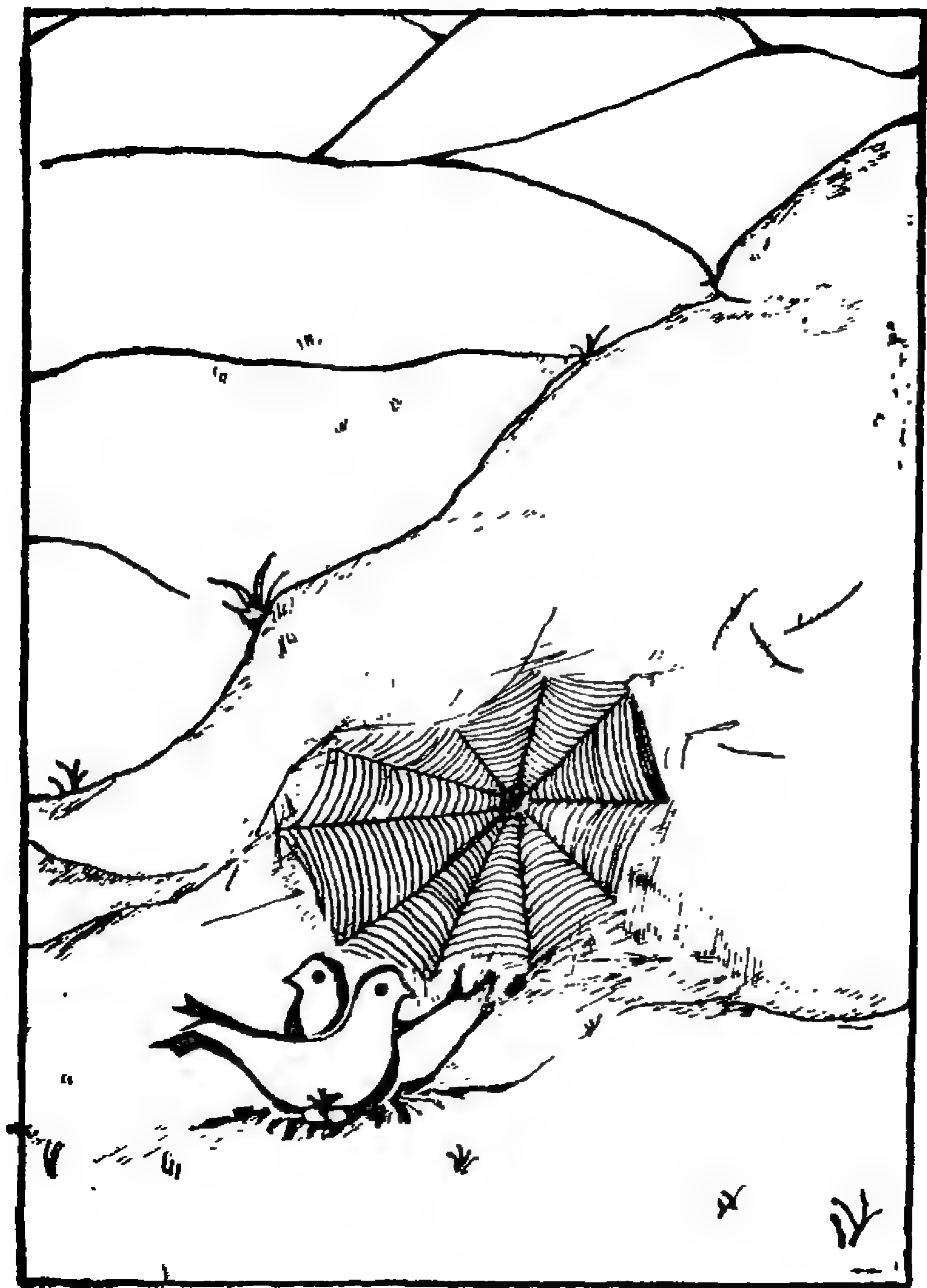
وهكذا نرى أن الهجرة لم تكن عملاً ارتجالياً ، ولم تكن الثقة التي لا حد لها في نصر الله حجة للتواكل والسلبية ، ولكنها على العكس كانت حادياً للحزم وباعثاً على الحذر وأخذ الأمور بمنطق علمي دقيق ، لا يترك شيئاً للصدفة<sup>(٢)</sup> .

إن العقيدة الإسلامية تفرض على المؤمنين بها أن يكونوا إيجابيين

(١) إمتاع الأسماع ، ج ١ ص : ٤٠ .

(٢) انظر مواقف إسلامية ، للدكتور / عبد العزيز كامل ، ص : ١١٤ .







فى كل ما يأتون ويدعون ، تفرض عليهم أن يأخذوا للحياة أسبابها المشروعة  
فى إخلاص وإتقان ودون غرور أو ادعاء « إن الله يحب أحدكم إذا عمل  
عملاً أن يتقنه » و « يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم  
شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » (١)  
ولهذا كانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس .

### — ٥ —

وانقضت أيام ثلاثة ، كانت فيها مكة تغلى بالغضب والحقد  
وتتذر بالشبور والويل ، لا عمل لسادتها غير البحث عن وسيلة تقضى  
بها على محمد قبل أن يصل إلى أتباعه فى يثرب التى أصبحت تدعى  
بعد الهجرة « المدينة » .

وفتر الطلب عن الرسول بعد هذه الأيام الثلاثة ، وكأن الجاهلية  
قد خامرها الإحساس بالهزيمة وإن كانت لم تلق السلاح ، وترك الركب  
يغذ السير إلى غايته فى أمن واطمئنان . .

ووافى ابن أريقط الرسول وصاحبه بالراحتين لدى الغار . فركب  
صلى الله عليه وسلم راحلة منهما اسمها الجدعاء ، وركب الأخرى  
أبو بكر رضى الله عنه ، وقد أردف خلفه مولاة عامر بن فهيرة ،  
وسار عبد الله بن أريقط على راحلته فى مقدمة الركب فهو الدليل الذى  
ينحبر الطريق والذى استؤجر لهذه المهمة .

وأما المدة التى مكثها الرسول مع صاحبه فى الغار فهى ثلاث ليال ،

( ١ ) الآية : ٢٥ فى سورة التوبة .



كما يذهب المحدثون وعامة مؤرخي<sup>(١)</sup> السيرة ، وذكر المقرئ<sup>(٢)</sup> أن الرسول مكث في الغار بضعة عشر يوماً . ولكن هذا غير دقيق ، وهو اعتماد على حديث مرسل لا يسلم من الأخذ والرد .

وكان خروج الرسول من مكة في شهر صفر<sup>(٣)</sup> في بعض الروايات ، إلا أن المشهور أن الرسول خرج من مكة في ربيع الأول ودخل يثرب في نفس الشهر ، وكان بين دخوله وخروجه خمسة عشر<sup>(٤)</sup> يوماً تقريباً . وجاء أن يوم خروجه كان الثامن من هذا الشهر ، وهو يوافق اليوم العشرين من شهر سبتمبر<sup>(٥)</sup> سنة ٦٢٢ ميلادية .

وروى عن ابن عباس<sup>(٦)</sup> أن يوم خروج الرسول كان الاثنين ، وأنه أيضاً كان يوم دخوله ، كما كان يوم مولده وبعثته ووفاته .

وصلى الرسول الفجر إماماً بمن صحبه في هجرته ، ثم انطلق الركب العظيم تحوطه عناية الله ، نحو غايته ليس معه من سلاح يذود به عن نفسه شر الإنسان والحيوان غير سلاح التقوى والإيمان ، وأنعم به من سلاح لا يقل ولا يهزم أبداً .

وفي هذا الطريق الممتد عبر الصحراء ، ماذا كان يشغل بال خاتم

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ٦٩ ، ط بولاق ، وابن هشام ج ٢

ص : ١٢٠

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص : ٤١ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) البداية والنهاية ج ٣ ص : ١٩٠ .

(٥) مجلة الرسالة ، العدد ١٠٦١ ص : ١١ .

(٦) البداية والنهاية ج ٣ ص : ١٧٧ .

الرسول والأنبياء ، وماذا جرى له من أحداث وواجه من صعوبات ومشكلات .

لقد ترك محمد صلى الله عليه وسلم مكة بعد أن ناصبته العداء وبعد أن آذته في نفسه وأصحابه وأجمعت كلمتها في النهاية على الفتك به لتخلص منه ومن دعوته التي سفهت أحلامها وعابت آلهتها ، وإذا كان قد نجا منها ، وسلك طريقه إلى يثرب حيث أصحابه وأنصاره ينتظرونه ، فإن الذي لا شك فيه أن كثيرين ممن يتطلعون إلى قبض جائزة قريش التي أعلنت عنها لمن يقتل محمداً أو صاحبه سيغامرون من أجل الظفر بهذه الجائزة .

وما كان الحرص على دفع خطر المغامرين وطلاب الإبل هو الذي يشغل بال الرسول وصحبه فحسب . فقد كان الرسول يفكر في ذلك المجتمع الذي يسرع إليه ، فهناك الأوس والخزرج ، وما بينهما من ترات في الجاهلية ، وهناك المنافقون واليهود بما عرفوا به من الغدر والخيانة ، ثم هؤلاء المهاجرون الفقراء الذين تركوا كل ما يملكون في مكة ، وكيف يواجهون الحياة في مهجرهم الجديد ، وكان كل هذا من أجل الدين القويم الذي اصطفاه الله لتبليغه إلى الناس كافة .

وبينا الركب يوفض إلى غايته إذ بدا من بعيد قادم على فرس ، وقد شهر سلاحه ، وأوجس الصديق خيفة من هذا القادم ، فقد كان طوال الطريق لا يفكر في غير وقاية الرسول الأضرار والأخطار .

وكان هذا القادم سراقه بن مالك أحد الطامعين في جائزة قريش ، فلما دنا من الركب ساخت قوائم فرسه في الأرض ، فزجرها لتنهض ، وما كادت تستوي قائمة حتى ساخت أرجلها مرة ثانية ، واضطرب فؤاد سراقه ، وخاف أن يصيبه مكروه ، واستيقن أنه لن ينال من محمد

وصاحبه شيئاً . فنادى بالأمان ، ثم أخبر الرسول بما تريده قريش به ، فطلب منه الرسول أن يرد عنه الطلب ، وأمر عامر بن فهيرة أن يكتب كتاب أمان لسراقة ، استجابة لرغبته في هذا ، وكان وجدانه حدثه بأن هذا المطارد الهارب سيكون له شأن وسلطان بين العرب عما قريب .

ورجع سراقة من حيث أتى وكان لا يلتقى أحداً من رجال قريش إلا رده ، فلما وصل الرسول إلى يثرب أخذ سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهدته من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان من قضية جواده ، وذاع حديث سراقة في مكة ، وخاف رؤساؤها أن يكون ذلك سبباً لإسلام<sup>(١)</sup> كثير من أهلها ، فسعوا ليحملوه على الكف عما يقصه ويتحدث عنه ، فما أذعن لهم .

وتمر الأيام ، ويفتح الله على رسوله مكة ويفرغ النبي من حنين والطائف ، وكان سراقة ما زال على دين قومه ، وكان يحتفظ بالكتاب الذي كتبه له ابن فهيرة . فخرج ومعه الكتاب للقاء الرسول فلقبه بالجرانة<sup>(٢)</sup> فلما قرب منه رفع يده بالكتاب ثم قال : يا رسول الله ، هذا كتابك لي أنا سراقة بن جعشم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، وأدناه الرسول منه ، وأسلم سراقة ، وأنسى جلال الموقف سراقة أن يسأل محمداً عما يريد ، إلا أنه قال له : إن الإبل الضالة ترد حياض وتشرب منها ، وهو قد أعدها لإبله ، فهل له بذلك من أجر ، وقال له الرسول الرحيم : نعم في كل ذات كبد حررى أجر ، وعاد سراقة إلى قومه بني مدلج مسلماً داعياً إلى الله .

(١) انظر : البداية والنهاية ج ٣ ص : ١٨٥ .

(٢) الجرانة : ماء بين الطائف ومكة ، وهي إلى مكة أقرب .







وفي منتصف الطريق بين مكة والمدينة اتخذت امرأة يقال لها أم معبد خيمة أعدت فيها كل ما تستطيع تقديمه لراحة المسافرين ، من طعام وشراب واستجمام وحديث نزيه تطرفهم به صاحبة الخيمة ، فهي امرأة برزة ؛ أي تبرز إلى الرجال فتجالسهم وتحادثهم .

ومر الرسول وصحبه بخيمة أم معبد ، وأقام بها بعض الوقت ، ولم يكن لدى صاحبة الخيمة في ذلك اليوم ما يمكن تقديمه لعابر أو زائر ، فالعام عام جدد وقحط ، ولما سألتها الصديق أن تبيعهم تمرّاً أو لحماً ، قالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى .

وحانت من النبي الكريم التفاتة فرأى شاةً رابضة في جانب الخيمة ، يبدو عليها الهزال والإعياء ، فسأل أم معبد عنها ، فقالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ فردت أم معبد : هي أجهد من ذلك ، فقام إليها الرسول ومسح ضرعها ، وأم معبد تتعجب وتقول في نفسها : ماذا عساه يفعل ؟

وإذا بالشاة تدر باللبن فشرب الرسول ومن معه حتى ارتووا واستراحوا ، ثم هبوا عجلين إلى ركائبهم ، فامتطوها واستبقوا طريقهم إلى المدينة ، وتركوا أم معبد في دهشة من أمرهم .

وبعد هنية قدم عليها زوجها أبو معبد فرآها مضطربة متغيرة اللون ، ورأى في جنبات الخيمة آثار أكل وشرب فقال : من أين لكم هذا والشاة عازبة<sup>(١)</sup> ، ولا حلوبة في البيت ؟ فأخبرته بخبر المسافرين

(١) أي لم تلد .



الذين نزلوا بها وأن واحداً منهم قام إلى نعجتها هذه العجفاء الجحافة الضرع  
فحلبها فدرت لبنا غزيراً فقال لها : يا أم معبد صني لي هذا الرجل  
العجيب ، فقالت : « رأيت رجلاً ظاهر الوضوء منبلج الوجه حسن  
الخلق ، لم تعب ثجلة ، ولم تزر به صلعة ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره  
وطف ، وفي صوته صحل . أحور أكحل ، أزج أقرن ، شديد  
سواد الشعر في عنقه سطع ، وفي لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ،  
وإذا تكلم سما وعلاه البهاء . وكأن منطقة خرزات نظم يتحضرن ، حلو  
المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ، أجهر الناس . وأجمله من  
بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربة لا تشتوه عين من طول ،  
ولا تفتححه من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ،  
وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يخفون به ، إذا قال استمعوا لقوله . وإذا  
أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود لا عابث ولا منفد » (١) .

فلما سمع أبو معبد هذا الوصف قال وقد علاه الوجوم : ويحك

( ١ ) تفسير ما في وصف أم معبد من غريب اللغة :

ثجلة : كبر البطن ، صلعة : صغر الرأس ، دعج : سواد العين مع سعتها ،  
وطف : طول الأهداب ، الصحل كالبيحة ، وألا يكون حاد الصوت . والقرن :  
التقاء الحاجبين والصحيح في صفة النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان مفروق  
الحاجبين ، أزج : رقيق الحاجبين طويلهما ، سطع : طول . لا نزر ولا  
هذر : لا قليل الكلام ولا كثيره : أجهر الناس : أرفعهم صوتاً . ربة :  
وسيط القامة ، لا تشتوه العين : أي لا تكرهه ولا تنفر منه . لا تفتححه :  
أي لا تحتقره ولا تزدريه . محفود : يسارعون إلى خدمته . محشود : أي يجتمع  
أصحابه إليه . منفد أي لا يتكلم بكلام غير معقول .

يا أم معبد هذا هو صاحب قریش الذين ما زالوا يطلبونه ، وقد بذلوا  
 جعلا لمن يرده إليهم . ثم تركها ، وأخذ يشتد في أثر الركب حتى أدرك  
 النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم ورجع إلى قبيلته يبشرهم بالإسلام .  
 وجعل رجال القبيلة الذين بلغهم خبر مرور النبي صلى الله عليه  
 وسلم بأم معبد يقدون على خيبتها ، يستوصفونها صفة النبي ، وهي  
 تصفه لهم حتى قال بعضهم : يا أم معبد ما بال وصفك للرسول أوفى  
 وأتم من وصفنا له لو رأيناه نحن معشر الرجال ؟ فقالت : أما علمتم  
 أن المرأة إذا نظرت إلى الرجل كان نظرها أشنى <sup>(١)</sup> من نظر الرجل  
 إلى الرجل ؟

وقد هاجرت أم معبد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت <sup>(٢)</sup> .  
 ولم يأخذ علماء الحديث على وصف أم معبد للرسول إلا أنها نعتته  
 بأنه كان أقرن أى مقرون الحاجبين وكل الذين وصفوه من الصحابة  
 قالوا إنه كان أفرق أى مفروق الحاجبين متباعدهما وقولهم هو الصحيح  
 في وصفه . .

والراجح أن أم معبد لم تخطئ في الوصف ، وأنها لم تقل أقرن ،  
 وإنما قالت أفرق ، ولكن الكلمة حرفت وما أيسر وقوع التحريف  
 بين أفرق وأقرن <sup>(٣)</sup> .

( ١ ) أشنى : أدق وأكثر استقصاء وانتباها .

( ٢ ) طبقات ابن سعد ج ٢ ص : ٢٣٠ .

( ٣ ) انظر المصدر السابق ، ومجلة الرسالة - العدد ٩٦٦ ص : ٩

## \_ ٧ \_

وكانت أخبار خروج الرسول من مكة قد وصلت إلى المدينة وهو لما يزل في طريقه إليها ، فكان أهلها يبرزون إلى ساحاتها وضواحيها . ويروحون ويغدون بينها وبين « قبا »<sup>(١)</sup> انتظاراً لمقدم الرسول وشوقاً إلى رؤيته .

وكان هؤلاء الذين ينتظرون محمداً وصحبه لا حديث لهم إلا عن صفات الرسول وهيبته ، وبينما هم يتجادلون في إقامة الرسول « بقبا » ليلة للراحة من وعناء الرحلة الطويلة ، ثم يتوجه إلى المدينة بعدها ، إذ طلع عليهم من قال : جئت الآن من قبا ، وقد وصلها النبي ومن معه ، وما سمع الأنصار والمهاجرون هذا حتى غمرتهم البهجة ورفعوا أبصارهم إلى السماء يسألون الله لدينه النصر ولنبيه العز والخير ، وهبوا عجلين رصوب « قبا » .

وكان كثير من المؤمنين لم ير الرسول ، من قبل ، وخلط بعضهم بينه وبين « أبي بكر » ، وحين وقف الصديق يظلل الرسول بردائه وقاية له من حر الشمس - فقد كانت الهجرة في وقت قائف - عرف الناس نبيهم وجعلوا يهتفون إليه بالتحية والترحيب والإجلال والتعظيم .

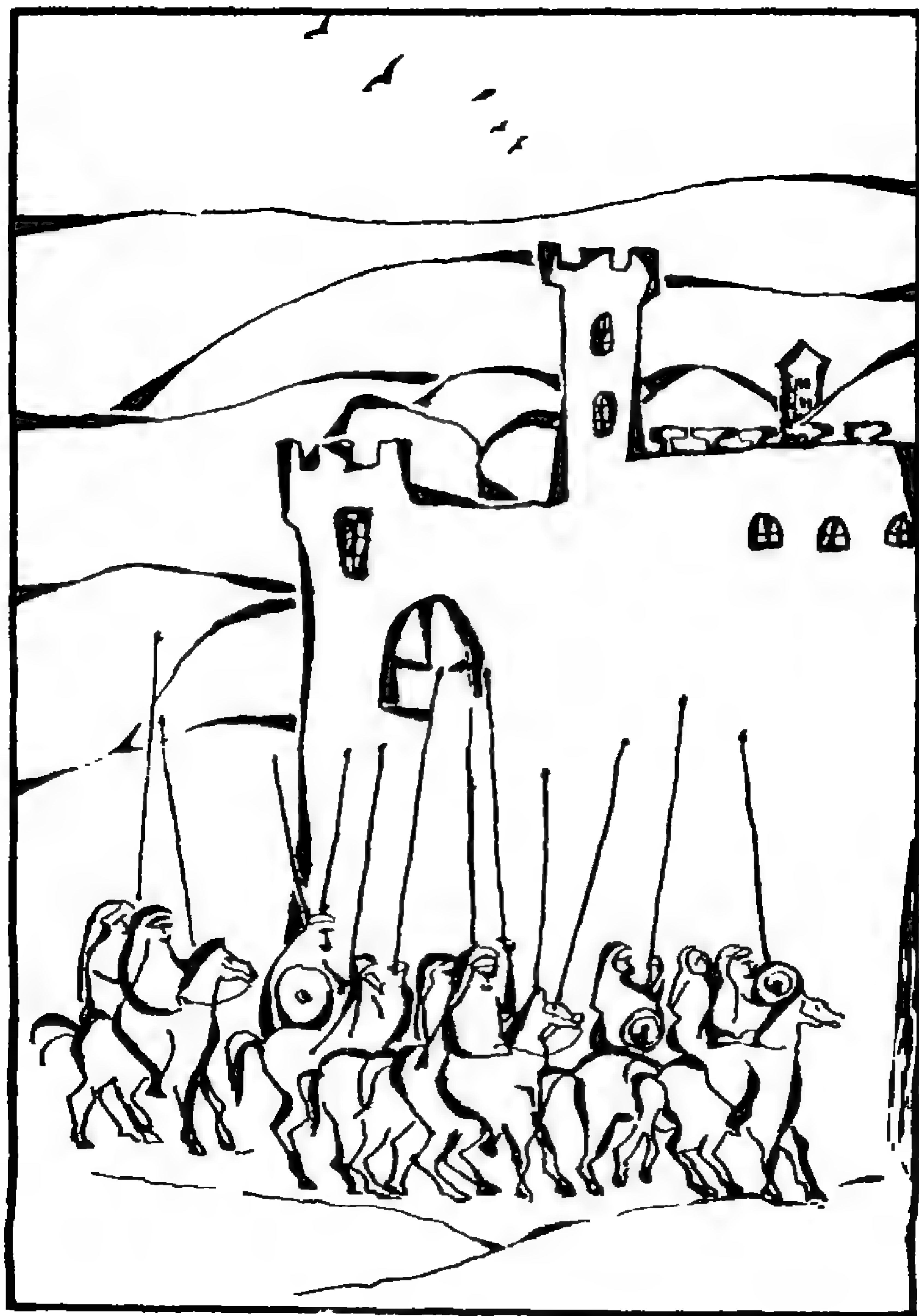
وأردف النبي أبا بكر خلفه ، وأخذ طريقه إلى المدينة ، وحف به الناس فرحين مستبشرين حتى دخلوها ، فإذا أحاجيرها<sup>(٢)</sup> مزدحمات

---

( ١ ) قرية تبعد عن المدينة نحو أربعة كيلومترات .

( ٢ ) أي شرفات سطوحها .







بالنساء فما رأين شخص النبي حتى علت أصواتهن بالزغردة والأناشيد .  
 وكان صغار الصبيان والحواري يمشون زرافات بين يدي النبي  
 يضربون بالدفوف وينشدون نشيد الهجرة الذي مطلعته :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع  
 كذلك تفرق الغلمان في بعض سكك المدينة ينادون : جاء محمد  
 رسول الله . الله أكبر . جاء محمد رسول الله .

لقد كانت المدينة في يوم عيد لم تعرف له نظيراً في تاريخها ،  
 فطرقاتها تموج بمعالم السعادة والغبطة ، والأطفال يغنون وينشدون  
 ويرقصون . والرجال يلعبون بالحراب ويرقصون . والنساء فوق أسطح  
 المنازل يزغردن . كانت البسمة على كل فم . والسرور يفيض به  
 كل وجه .

ولما تخلل الموكب دور المدينة جعل سكانها يقفون في وجه الناقة  
 ويضرع كل منهم أن ينزل النبي صلى الله عليه وسلم ضيفاً عليه ،  
 وكانوا أحياناً يمسكون بزمام الناقة ويميلون رأسها إلى جهة بيوتهم ، والرسول  
 لا يعنفهم ولكنه يقول لهم في رفق : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » .

وأخيراً بركت الناقة على باب أبي أيوب الأنصاري النجاري ، ونزل  
 الرسول عنها ودخل الدار قائلاً : « رب أنزلي منزلاً مباركاً وأنت خير  
 المنزلين » قال أنس خادم النبي عن ذلك اليوم المشرق : « إنني لم  
 أرى يوماً في عمري أحسن ولا أضواً من ذلك اليوم الذي دخل فيه النبي  
 المدينة ونزل دار أبي أيوب » .

( ١ ) انظر ابن هشام ج ٢ ص : ١٣٩ ، إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٧ ،



وفور وصول الرسول إلى المدينة شرع يعمل من أجل الغاية التي دعت إليها الهجرة ، بنى المسجد ، وعقد مع أهل المدينة معاهدة<sup>(١)</sup> سلام وتعاون وحسن جوار ، ثم آتى بين المهاجرين والأنصار ، لتوثق الروابط بينهم ، ونهيات للدعوة في مهجرها لهذا وغيره عوامل النمو والازدهار والقوة ، وبحيث لم يكد يمضى على المسلمين عامان في المدينة حتى خاضوا معركتهم الأولى في بدر . وفي العام الثامن بعد الهجرة كان الرسول يقف على باب الكعبة بالقرب من دار الندوة حيث تأمرت قريش على قتله قبيل هجرته فيقول : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، يا أهل مكة ، ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فيقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . سلام الله عليك يا رسول الرحمة ونبي الإنسانية . لقد طهر الله قلبك من الحقد والضغينة والانتقام ، وكنت المثل الأعلى في الصفح والعفو ، لأنك لا تريد إلا نصرة الحق وهزيمة الباطل ، وفي سبيل ذلك تحملت ما تحملت حتى حقق الله النصر ، وهوت أصنام المنكر والشرك ودخل الناس في دين الله أفواجا .

---

(١) انظر نص هذه المعاهدة في كتاب المنتخب من السنة ج ١ ص

## المهاجرون والأنصار

— ١ —

المهاجرون والأنصار هم حملة الإسلام الأول آمنوا به ، وكافحوا من أجله ، وجادوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل تبليغ دعوته وإعلاء كلمته ، وضربوا أروع الأمثلة في الفداء والجهاد ، وصاروا بكل ذلك أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فضل ، وما أعدّه لهم يوم القيامة من ثواب عظيم ونعيم مقيم .

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ وبقينهم الخالص لم يمكنوا الجاهلية في مكة من وأد الدعوة ، وهي في مستهل حياتها ، لقد استمسكوا بما أوحى إلى نبيهم ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاماً بما اهتدوا إليه وآمنوا به ، ولما أسرفت الجاهلية في عسفها واضطهادها وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصابرين بالهجرة من مكة خرجوا من ديارهم وأموالهم ، ويمموا صوب المدينة وهناك استقبلهم إخوانهم الأنصار بالحفاوة والإكبار ، ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين ، فقد تميز بالحب الرائع والبذل السخي والإيثار الكريم ، كان المسلم الأنصاري يقدم إلى أخيه المسلم المهاجر نصف ماله أياً كان نوعه وكان يطلق إحدى زوجاته ليتزوجها المسلم المهاجر الذي لا زوج له ، وبهذه الروح السامية ، روح الإيمان والحب والإخاء والفداء والإيثار تكون المجتمع الإسلامي الأول في المدينة ، واستطاع هذا المجتمع بهذه القيم الخالدة والمثل الفاضلة أن يدحر كل مؤامرات المنافقين واليهود في المدينة ، وأن

يكون للدعوة الحاتمة قوة عادلة تمكن لها في غير إكراه لأنه لا إكراه في الدين ، وما يقوله بعض المستشرقين ومن سار في ركابهم من الباحثين المسلمين من أن الإسلام دين ذاع بحد السيف قول باطل ، ويكفي في إدحاضه انتشار الإسلام في بلاد لم تعرف الجيوش الإسلامية طريقاً إليها ، وكان التجار والرحالة والعلماء هم حملة الإسلام إلى تلك البلاد .

وهؤلاء الأجداد الأبطال من المهاجرين والأنصار تحدث كتاب الله عنهم حديثاً يفيض بالثناء عليهم والإشادة بهم . فهم قد أخلصوا ما عاهدوا الله عليه هاجر المهاجرون يرجون رحمة الله وخلفوا وراءهم في مكة أموالهم وديارهم وأهليهم وأحلام طفولتهم وآمال شبابهم انتصاراً لإيمانهم وفداء لعقيدتهم ، وآوى الأنصار ونصروا وبذلوا في سخاء زاثروا على أنفسهم في غبطة فكانوا جميعاً المؤمنين حقاً وصدقاً وكانوا أهلاً لما أعده الله لهم في دار الخلد والبقاء من ثواب جزيل . وصدق الله العظيم : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لم مغفرة ورزق كريم »<sup>(١)</sup> . « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم »<sup>(٢)</sup> .

على أن حديث القرآن عن المهاجرين جاء أكثر من حديثه عن الأنصار ، وقد أفرد أولئك بالذكر في بعض الآيات على حين ورد ذكر هؤلاء مع المهاجرين دون أن يفردوا بالذكر في آية واحدة .

وليس ذلك من باب تفضيل المهاجرين على الأنصار مع التسليم بأن

( ١ ) الآية : ٧٥ في سورة الأنفال .

( ٢ ) الآية : ١٠٠ في سورة التوبة .



المهاجرين أسبق إيماناً وجهاداً وذكرأ في القرآن وتعرضوا لصنوف مختلفة من التعذيب لم يتعرض لها الأنصار ، ويكفى أن الله تبارك وتعالى وصفهم جميعاً بأنهم المؤمنون حقاً ، وبأنه سبحانه رضى عنهم ورضوا عنه .

ولكن القرآن الكريم تحدث أكثر عن المهاجرين ليسجل لهم بعض ما تعرضوا له من الأذى والاضطهاد في مكة ، وليتحدث عن أنواع المهاجرين وحظهم من الهجرة .

وقد أسلفت عند الحديث عن أسباب الهجرة الإشارة إلى بعض الآيات التي عبرت في إجمال عن موقف كفار مكة من المؤمنين الصابرين ، وكيف أكره هؤلاء على ترك ديارهم بسبب ذلك الموقف الذي اتسم بالحقاقة والغلظة والادعاء وسوء الأدب .

ولأن الهجرة كانت فرضاً على المؤمنين قبل فتح مكة فإن القرآن تحدث عن بعض المؤمنين الذين لم يهاجروا ، أو تأخرت هجرتهم لتأخر إيمانهم ، كما أشار إلى هؤلاء الذين أدركهم الموت وهم في طريقهم إلى المدينة .

## — ٢ —

من أنخص خصائص الإسلام أنه عقيدة استعلاء ، ولا تعنى كلمة الاستعلاء الغطرسة والكبرياء . ولكنها تعنى السمو الروحي الذي يربأ بالإنسان أن يعيش كالحیوان الأعجم تسيطر عليه شهوات الجسد ، ويستكين لكل من يقدر عليه .

إن تعاليم الإسلام كلها تغرس في نفوس المؤمنين به ذلك

الشعور الكريم : شعور الاستعلاء في غير كبر ، وشعور الكرامة في غير ضعف . فكلمة الشهادة — وهي مفتاح الإسلام — تحرر الإنسان من عبودية غير الله ، ومن ثم لا يخضع في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله إلا لما أمره الله به ونهاه عنه ، فيحيا أياً مستعلياً على كل ما يحول بينه وبين الحياة العزيزة الكريمة .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن نوع من المؤمنين لم يهاجروا ورضوا بالإقامة مع قومهم ، وكان عليهم أن يفروا بدينهم إلى الله ورسوله ، استعلاء لعقيدتهم وتمرداً على الضعف والاستكانة وطلباً للعزة والحرية والكرامة ، فيصور هؤلاء تصويراً يبرز مدى خضوعهم لضعف العزيمة وعود الهمة والرضوخ للذل :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » (١) .

وعذر هؤلاء بالضعف مرفوض ، ولا يتفق مع روح القوة والاستعلاء التي يثبها الإسلام في النفوس « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

ويؤكد رفض عندهم وأنه غير صحيح أن الآية بعد ذلك تستثني الذين يعجزون عن الهجرة ولا يعرفون سبيلاً أو حيلة إليها ، لأن الله أرحم بعباده من أن يطلب منهم مالا يقدرون عليه فهو سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وقال الإمام القرطبي عن هذه الآية : المراد بها جماعة من أهل مكة أسلموا وأظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان ، فلما هاجر أقاموا مع قريتهم ، وفتن منهم جماعة ، فافتنوا ، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار فنزلت الآية (١).

وقال الإمام محمد عبده : كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم ، فهم بحبهم لبلادهم ، وإخلاصهم إلى أرضهم وسكونهم إلى أهلهم ومعارفهم ضعفاء في الحق لامتضعفون . وهم بضغفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة خير الدنيا بعزة المؤمنين وخير الآخرة بإقامة الحق ، فظلمهم لأنفسهم عبارة عن تركهم العمل بالحق خوفاً من الأذى وفقد الكرامة عند عشرائهم المبطلين (٢).

فهذا لون من المؤمنين الذين لم يهاجروا وهم قادرون على الهجرة ، وهذا جزاؤهم المهين الذي يتلاءم مع مهانتهم وصغارهم ، وكفى بذلك دليلاً على أن المسلم لا يرضى بالدنية في دينه ودنياه وأن عقيدة الاستعلاء دون غرور أو ادعاء تحكم حياته كلها . .

### — ٣ —

أما الذين آمنوا بعد الهجرة ثم هاجروا فيقول القرآن عنهم : « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » (٣). إنهم كالمهاجرين

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣١٥

(٢) تفسير المنار ج ٥ ص ٣٥٦

(٣) الآية ٧٥ في سورة الأنفال .



والأنصار في الولاية والجزاء يجب لهم من الحق والنصرة في الدين والموالة مثل ما يجب عليهم لإخوانهم السابقين من المهاجرين والأنصار .

ومما يتصل بهؤلاء الذين آمنوا بعد الهجرة ثم هاجروا ما جاء في سورة الممتحنة<sup>(١)</sup> عن بعض المؤمنات المهاجرات : «يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لاهن حل لهن ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

وهذه الآية الكريمة<sup>(٢)</sup> يروى أنها نزلت بعد صلح الحديبية ، وكان من شروطه أن من جاء الرسول من أهل مكة رده إليهم ، ومن ذهب من المؤمنين إلى مكة فلا يرده أهلها إلى محمد ، فجاءت امرأة لم يتفق المفسرون على اسمها إلى الرسول مسلمة ، وهرع زوج المرأة أو أهلها يطلب من محمد أن يرد عليهم تلك المرأة . فنزلت الآية لإبطال ذلك للشرط بالنسبة للنساء . فلم يرد الرسول امرأة هاجرت إليه .

وتطلب الآية من الرسول أن يمتحن المؤمنات المهاجرات واختلف فيما كان يمتحن به على ثلاثة أقوال :

١ - كانت المرأة تستحلف بالله أنها ما خرجت بسبب بغضا لزوجها أو مضارته ، ولا سعياً وراء مغنم دنيوى من مال أو زوج ، ولكنها هاجرت حباً لله ورسوله .

( ١ ) الآية العاشرة .

( ٢ ) انظر القرطبي ج ١٨ ص ٦١ .

٢ - أن تشهد المرأة الشهادتين دون أن تستحلف .

٣ - أن تباع الرسول بما جاء في الآية : « يأياها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » (١) .

وهذا الامتحان على اختلاف في تحديد مدلوله إنما هو للمؤمنين ، لأن الله لا يخفى عليه شيء ، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ، وهذا يرشد إلى أنه لا سلطان لأحد على ضمير الإنسان إلا الله ، وأن كل من تظهر منه دلائل الإيمان وشواهد اليقين بالقول والفعل ، فهو مؤمن تجرى عليه أحكام الإسلام ، وأما ما عقد عليه قلبه فأمره إلى الله .

وتأمر الآية إذا ظهر إيمان المؤمنات المهاجرات بعدم ردهن إلى أزواجهن الكفار ، فقد انفصمت عرى الزوجية بإيمانهن ، ولكن عدل الإسلام يقضى بدفع ما أنفق الكفار من صداق على زوجاتهم المهاجرات ، ولا حرج على المسلمين أن يتزوجوا إذا دفعوا إليهن صداقهن .

ثم تنهى الآية في ختامها عن التمسك بعقد زوجية الكافرات الباقيات في دار الشرك أو اللاحقات بها ، وتأمر مع هذا بدفع ما أنفق الكافرون على زوجاتهم وأخذ ما أنفق المؤمنون كذلك ، وهذا حكم الله بين عباده ، وهو سبحانه أعدل الحاكمين .

وتجدر الإشارة إلى آية وردت في سورة الأحزاب (٢) لأنها كرمت المهاجرات وهي تتحدث عن أنواع من النساء أحلها الله للنبي صلى الله

(١) الآية ١٢ في سورة الممتحنة .

(٢) الآية : ٥٠ .

عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ، وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » .

في هذه الآية الكريمة يحلل الله للنبي صلى الله عليه وسلم أنواع النساء المذكورات فيها ولر كان فوق الأربع مما هو محرم على غيره وهذه الأنواع هي :

أولاً : اللواتي أمهرهن ، أي تزوجهن بصداق مسمى ، فكلمة الأجور في الآية يقصد بها المهور <sup>(١)</sup> .

ثانياً : ما ملكت يمينه إطلاقاً من النوى والغنيمة .

ثالثاً : كل امرأة تهب نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم بلا مهر ولا ولي إن أراد النبي نكاحها . وقد جعل الله هذه خصوصية للرسول بما أنه ولي المؤمنين والمؤمنات جميعاً .

ولكن الآية الكريمة بعد أن ذكرت ما أحله الله لنبيه من الأزواج اللاتي أمهرهن ، وما ملكت يمينه ، نصت على بنات العم والعلمات ، والحالات . فهل لهذا النص دلالة على أن الله أحل لنبيه هؤلاء فضلاً عما أمهرهن وما ملكت يمينه كما يذهب جمهور المفسرين ، أو أن خصوصية هؤلاء بالذكر من قبيل التشريف والتقدير ، والاهتمام

(١) انظر تفسير الطبري ج ٢٢ ص ١٥ : ط بولاق ، وبصائر ذوي

التمييز ج ٢ ص : ١٣١ .



على رأى بعض المفسرين<sup>(١)</sup> ؟

والذى أرجحه أن هذا النص من قبيل التشریف والتقدير وأن القيد الذى قيد به وهو « اللاتى هاجرن معك » يوحى بأن هذا النص إنما جاء لبيان أن درجة القرابة لا اعتبار لها إذا فقدت الإيمان الصادق وأن الهجرة كانت قوام الولاء والإخاء بين المسلمين ، وأن المهاجرين رجالاً ونساء أهل للتكريم والتقدير بما قاموا به في سبيل الله .

على أن المراد بقول الله تعالى : « هاجرن معك » هو المشاركة في الهجرة لا صحبتهم له فيها ، فمن هاجر منهم حل له ، سواء كان في صحبتته إذا هاجر أو لم يكن ، يقال : دخل فلان معي ، أى في صحبتي فكنا معاً ، ويقال : دخل فلان معي وخرج معي أى كان عمله كعملي وإن لم يقترن فيه عملكما<sup>(٢)</sup> .

وقد جاء إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة في الآية آية من آيات البلاغة القرآنية ، ودقة ألفاظ هذا الكتاب العزيز وأسلوبه ، وذلك أن العرف اللغوي يستعمل العم والخال اسمي جنس كالشاعر والراجز ، وليس كذلك العمة والخالة ، فجاء الإفراد والجمع على مقتضى ذلك العرف اللغوي الدقيق . ولا غرو فالقرآن الكريم كلام الله العزيز الحكيم أنزله على نبيه بلسان عربي مبين .

وكان تنكير المرأة التي وهبت نفسها للنبي سبباً في اختلاف المفسرين حولها ، أواحدة كانت أم أكثر ، ومن هي أو هن ؟ ومع كثرة

(١) انظر القرطبي ج ١٤ ص : ٢٠٧ .

(٢) انظر البحر المحيط ج ٧ ص ٢٤١ ، وتفسير القرطبي ج ١٤ ص

٢٠٨ ، وتفسير سورة الأحزاب للأستاذ الدكتور مصطفى زيد ص : ١٨٤ .

الروايات التي أوردها بعض المفسرين <sup>(١)</sup> من عدد الواهيات أنفسهن للنبي وفي تعيينهن ، فقد ذكر ابن كثير <sup>(٢)</sup> عن ابن عباس من أنه لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له . أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان ذلك مباحاً ومخصوصاً به لأنه مردود إلى مشيئته .

وهذا الذي ذكره ابن كثير وغيره من المفسرين يتلاءم مع منطوق الآية الكريمة ، فليس فيه ما يفهم منه أن الرسول قبل امرأة وهبت نفسها له بدليل هذا الشرط « إن أراد النبي أن يستنكحها » ولم يثبت أنه أراد نكاح واحدة ممن وهبن أنفسهن له وإن أباحت له الآية ذلك وخصته به . فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يتزوج بامرأة وهبت نفسها له دون صداق ، أما هو صلى الله عليه وسلم فقد أحل له نكاح من تهب نفسها له <sup>(٣)</sup> .

والآية بعد أن بينت ما أحله الله للنبي صلى الله عليه وسلم أشارت إلى غيره من المؤمنين وذكرت أنهم خاضعون لما فرضه الله عليهم في أزواجهم ، وما ملكت أيماهم ، فليسوا مثل الرسول في جواز أن ينكح الرجل أكثر من أربع بمهر وولي أو أن تهب له امرأة نفسها ، وإنما اختص الرسول بذلك لكي لا يكون عليه حرج في استبقاء أزواجه وفي الاستجابة للظروف الخاصة المحيطة بشخصه .

ومع ما أحل الله لرسوله ومع ما تزوج عليه السلام في حياته فإن الرسول لم يكن إنساناً ذا نزوات وشهوات لا تعرف القيود والحدود ، فقد

(١) انظر الطبري ج ١٤ ص : ٢٠٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٦ .

(٣) تفسير سورة الأحزاب ص : ١٨٥ .

تزوج السيدة خديجة رضي الله عنها ، وهو في غصارة الشباب وفتوته وكانت هي أكبر منه سناً ، وظلت المرأة الوحيدة في حياته إلى أن ماتت وكان هو قد تجاوز الخمسين من عمره حين وفاتها . ثم تزوج عليه السلام بعد وفاة السيدة خديجة من تزوج من النساء ، وكان لكل زوجة ظرف<sup>(١)</sup> خاص كان سبباً للتزوج بها ، وليس منها ما يدل على أنه كان يستجيب لشهوة أو نزوة ، فقد تجاوز السن التي هي مظنة الرغبات العارمة وكانت أعباء الدعوة بعد الهجرة تضيف إلى تقدم السن عاملاً آخر في نفي ما يثيره بعض المغرضين من المستشرقين وأمثالهم ، من أن الرسول كان رجلاً يأخذ بعقله الخوى وأنه تزوج من تزوج من نسائه بدافع من شهوة أو غرام ، إذ أنه أباح لنفسه ما حرم على الناس كما ذهب إلى هذا المرحوم الدكتور منصور فهمي في رسالته التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة باريس . ثم تبين له وجه الحق بعد ذلك فاعترف بما تورط فيه من خطأ جسيم .

إن محمداً بشر ولكنها البشرية في جلالها وكمالها . ومن يقرأ سيرته أو يدرس شخصيته تطالع عظمة هذا الرسول الأسمى وكماله في كل مرحلة من مراحل حياته ، وهؤلاء الذين صوروه بغير ما فطره الله عليه وألصقوا به ما هو براء منه إنما حملهم على هذا الأهواء وفقدان الموضوعية والأمانة العلمية .

---

( ١ ) انظر حياة محمد لهيكل الفصل السابع عشر .



— ٤ —

وروى عن ابن عباس قال : خرج حمزة بن جندب من بيته مهاجراً ، فقال لأهله : احمّلوني فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزل الوحي : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً<sup>(١)</sup> » .

وهناك روايات متعددة عن المهاجر الذي أدركه أجله وهو في طريق هجرته . فتزلت الآية بسببه ، وهي روايات لآهمننا كثيراً<sup>(٢)</sup> ، ولكن الآية تدل على أن النية الخالصة هي أساس الخير والأجر ، وقد روى عن الرسول عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه<sup>(٣)</sup> » .

---

(١) الآية ١٠٠ في سورة النساء . والمرغم أى المذهب الذى يذهب إليه . والمادة ترجع إلى معانى المساخطة والمجاهدة ، فالمهاجر حين يترك دار المنكر ويغضب على ما يرى من الشر ، فهو يجاهد نفسه وعدوه « وانظر مفردات الراغب مادة رغم » .

(٢) انظر تفسير المنار ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٣) البخارى ج ١ ص ١ .

إن المؤمن الصادق في إيمانه لا يشرك بالله شيئاً في كل تصرفاته ويحرص دائماً على أن تكون أعماله خالصة لله وحده ، فهو سبحانه مطلع على السرائر والضمائر ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وهذه الآية جاءت عقب الآيات التي تحدثت عن الذين لم يهاجروا وأقاموا مع قومهم ورضوا بحياة الضعف والمهانة ، ولا يعقل أن تكون مبتورة الصلة بها وأنها نزلت في شخص ما مات في طريق هجرته ، ولكن العلاقة بين هذه الآية وتلك الآيات وثيقة فهي تذكر أن من يهاجر في سبيل الله لن تضيق به الأرض ففيها رحابة وسعة . وما تضيق الأرض إلا في وجه الإنسان حين تضيق همته ويتقلص رجاءه في الله وتمسكه القيود والخاوف في دار الهوان ، ثم تبين أن من خرج من قفص الخوف الذي يمسك به حيث يفرط في دينه أو في كرامته أو في حقوقه ، وهاجر إلى الله ورسوله فأدركه الأجل قبل بلوغ الغاية فإن الله بفضله ضمن له المغفرة والرحمة . . ولعل كل هذا يحمل هؤلاء الضعفاء على أن يفرروا بدينهم من دار الاستكانة والخوف إلى دار العزة والأمن والكرامة .

### — ٥ —

وإذا كانت الهجرة قد أتاحَت للمسلمين حياة لا تعرف الاضطهاد والأذى ، فإنها لم تخلصهم من محاولات النيل منهم . فأعداء الإسلام في داخل المدينة وفي خارجها يتربصون به ويكيدون له ويعملون<sup>(١)</sup>

---

(١) انظر : محمد صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل للدكتور مصطفى كمال وصفي .

والمعروف أن الرسول وادع اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وكتب لهم بذلك =

في الظلام للاتقصاض عليه ، فيهود المدينة والمناققون فيها أبطنوا الحقد والكيد والنفاق والدس ، وأظهروا الوثام والسلام ، وكفار مكة لم يكونوا يرون في هجرة المسلمين انتصاراً لهم ويعتقدون أن هؤلاء المهاجرين لن يناموا عن الثأر لأنفسهم ، فكانوا يتحينون الفرصة لتبديد شملهم والقضاء عليهم . فإذا أضيف إلى ذلك أن المهاجرين قد ضحوا بكل غال ونفيس لديهم من أجل الحفاظ على عقيدتهم ، تبين لنا أن المسلمين في مستهل حياتهم الجديدة بعد الهجرة كانوا في أمس الحاجة إلى تشريعات تشد أزهم وتحمي وحدتهم وتعددهم لخوض المعارك المتباينة ضد الشرك والنفاق والحقد ، حتى تصبح كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار تشريعاً يتلاءم مع طبيعة الفترة الحرجة التي كان المجتمع الإسلامي يمر بها عقب الهجرة . فقد حقق التعاون والتناصر بين أفراد هذا المجتمع تحقيقاً كفل له التماسك والتغلب على كل ما يهدده في المدينة أو غيرها .

والمشهور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد قدومه المدينة بخمسة أشهر ، وأن هذه المؤاخاة كانت على الحق والمواساة والتوارث<sup>(١)</sup> .

وروى أن الرسول قال لأصحابه : تأخوا في الله أخوين أخوين<sup>(٢)</sup> .

= معاهدة ، ولكنهم لم يحترموا ما شرطه الرسول لهم وعليهم فخانوا وغدروا - وهكذا شأنهم دائماً في كل عصر ومصر - وقد أمكن الله رسوله منهم وأورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم .

( ١ ) الدرر ص ٩٦

( ٢ ) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٦ .



وجاء عن ابن عباس قال : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه المهاجرين والأنصار ، وورث بعضهم من بعض حتى نزلت : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » (١) .

وقال ابن كثير : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبي صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقال ابن القيم : كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على المواساة والتوارث بعد الموت دون ذوى الأرحام (٣) .

ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى فى سورة الأنفال : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير » نص فى المؤاخاة من حيث التوارث ، ولذلك يذهب إلى أن الولاية فى الآية الكريمة خاصة بولاية الإرث لأن المسلمين كانوا يتوارثون فى أول الأمر بالإسلام والهجرة دون القرابة (٤) .

ويرجع الإمام محمد عبده أن لفظ الأولياء عام يشمل كل معنى يحتمله وكل ما يصح أن يقال فى مسألة التوارث أنها داخلة فى عموم

( ١ ) الدرر ص ٩ .

( ٢ ) البداية والنهاية ج ٣ ص ٦٢٢ .

( ٣ ) زاد المعاد ج ٢ ص ٧٩ .

( ٤ ) تفسير المنار ج ١٠ ص ١٠٥ .

هذه الولاية سواء كان بالإسلام أو القرابة (١).

ومهما يكن من خلاف بين المفسرين حول تفسير الولاية ، وهل هي خاصة بالإرث أو أنها غير خاصة به وتنسحب على كل معنى تحتمله ، فإن الآثار تضافرت على أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار شملت التوارث دون ذوى الأرحام .

لقد كان هذا الإخاء صلة فريدة في تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد ، لقد قام مقام أخوة الدم فكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالديات وغيرها .

وبهذا الإخاء ازدادت وحدة المسلمين توكيداً واستطاعوا أن يصمدوا أمام عواصف الشرك والنفاق والكيد ، وأن ينطلقوا من مهجرهم بعد أمد وجيز ليظهروا البيت الحرام من الأوثان والأصنام ويدخل الناس في دين الله أفواجاً .

وتذكر الآية أن ولاية المؤاخاة — على اختلاف في تفسيرها — لا تشمل الذين آمنوا ولم يهاجروا كما كان الشأن مع جماعة من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا استمسكاً بمصالح أو قرابات مع المشركين ، غير أن هؤلاء وأمثالهم يجب على المسلمين نصرهم إن استنصروا في الدين على شرط ألا يخل المسلمون في هذه النصرة بعهد مضروب بينهم وبين قوم آخرين وهي قمة في الاحتفاظ بالعهد تتطلع إليها البشرية ولا تنالها حتى الآن .

لقد كانت الهجرة العنوان الصادق للإيمان الخالص الذي لا يشوبه نفاق أو حرص على مصلحة فانية ومتعة زائلة ، ولهذا لم يكن بين المؤمنين المهاجرين وهؤلاء الذين آثروا البقاء بين المشركين ولاية إخاء ، ولهذا

كذلك نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من المنافقين أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله . فلهجرة البريئة التي لم تحركها بواعث المصلحة المادية دليل الإيمان الذي لا يعرف الغدر والخديعة والذي لا يعنيه إلا إعلاء كلمة الحق : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً » (١) .

## - ٦ -

ولما كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قد قامت مقام أخوة الدم بسبب الظروف الاستثنائية التي عاش في ظلها المجتمع الإسلامي بعد الهجرة مباشرة ، فإن الإسلام مع حفاظه بهذا الإخاء واستبقاء يناييعه في القلب مفتوحة دائماً مستعدة للفيضان في كل وقت وحين ، حريص على أن يقيم بناءه على أساس الطاقة العادية للنفس البشرية لا أساس الفترات غير العادية التي تؤدي دورها في الفترات الاستثنائية ، ثم ترك مكانها للمستوى الطبيعي متى انقضت فترة الضرورة الخاصة .

ومن ثم عاد القرآن بمجرد استقرار الأحوال في المدينة شيئاً ما بعد غزوة بدر الكبرى واستتباب الأمر للدولة الإسلامية وقيام أوضاع اجتماعية مستقرة بعض الاستقرار ووجود أسباب معقولة للارتزاق وتوفير قدر من الكفاية — عاد القرآن إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة عن الدم مستقبياً إياه من ناحية العواطف والمشاعر ليعود إلى العمل إذا دعت الضرورة .

---

( ١ ) الآية ٨٩ في سورة النساء .



« النى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » (١).

وهذه الآية فى مستهلها تقرر الولاية العامة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهى ولاية تتقدم على قرابة الدم بل على قرابة النفس ، فهو أرحم بالمؤمنين من أنفسهم فعليهم أن يحبوه ويطيعوه ، وليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحى من ربه : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ».

وتقرر الآية كذلك الأمومة الشعورية لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لجميع المؤمنين ، فيجب عليهم توقيرهن وعدم التزوج بهن بعده : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً » (٢).

وبعد أن ألغت الآية نظام المؤاخاة من ناحية التوارث والتكافل فى الديات ، وردت هذا إلى قرابة الدم والنسب « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » أشارت إلى أن هذا الإلغاء من تلك الناحية لايعنى بتر صلات المودة من حيث التعاون والتناصر ، ومن حيث التكافل المالى كذلك « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً » فباب الهبة أو الوصية مفتوح لمن يقدم خيراً وبراً .

والآية فى ختامها تقرر أن التوارث بالأرحام هو الأصل المقرر فى الأزل « كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » فتقر القلوب وتستمسك بالأصل الذى يرجع إليه كل تشريع وكل تنظيم .

( ١ ) الآية ٦ فى سورة الأحزاب .

( ٢ ) الآية ٥٣ فى سورة الأحزاب .

## - ٧ -

والمهاجرون الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أراد الرسول الكريم أن يقسم عليهم وحدهم دون الأنصار أموال بني النضير<sup>(١)</sup> التي غنمها الرسول بغير حرب ، وكان يريد من وراء ذلك أن يعوض المهاجرين عن بعض ما تركوه في مكة وأن يحدث نوعاً من التقارب المالى بين المسلمين جميعاً في المدينة ، غير أنه عليه السلام لم يشأ أن يفعل ذلك إلا بعد أن يجمع الأنصار ويعرض عليهم ما يراه .

دعا الرسول الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من البذل والإيواء والنصرة ثم قال لهم : إن أحببتم قسمت ما أفاء الله على من بنى النضير بينكم وبين المهاجرين ، وكانوا على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم .

ويقول سعد بن عبادة وسعد بن معاذ الأنصاريان : « بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا » ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » .

( ١ ) النضير اسم قبيلة من اليهود الذين كافوا بالمدينة ، وقد حاولوا قتل الرسول بإلقاء حجر عليه وهو جالس إلى جنب جدار من بيوتهم ، ثم نقضوا العهد الذى بينه وبينهم ، فخرج الرسول إليهم في نفر من أصحابه فقر هؤلاء اليهود بعضهم إلى خيبر على بعد نحو مائة ميل من المدينة وبعضهم إلى جرش بجنوب الشام ، وكان هذا في شهر ربيع الأول سنة ٤ هـ .

موقف رائع نبيل . وصورة حية مشرقة من صور الإيمان والحب والإيثار ، صورة تؤكد أن رابطة العقيدة أقوى وأغلب من رابطة الدم والنسب والموطن والجنس . وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف في سورة الحشر في الآيتين الثامنة والتاسعة بعد أن أورد قبلهما قصة بني النضير ، وما يجب فيما يفيت الله على المسلمين من أموال بغير قتال :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

لقد أثنى الله على المهاجرين والأنصار في هاتين الآيتين : مدح المهاجرين بصدق الإيمان والجهاد ، فقد خرجوا من ديارهم وأموالهم يرجون فضل الله ورضوانه ، وينصرون الله ورسوله ، ومدح الأنصار الذي تبوءوا الدار أى استوطنوا المدينة قبل المهاجرين بإخلاص الإيمان وحب الذين هاجروا إليهم كما مدحهم بالإيثار فى أسمى صورته لأنه إيثار عن حاجة .

وتحذر الآية فى ختامها من الشح ، لأنه المعوق عن كل خير وبر ومن خلص نفسه من إفسار الشح وبذل فى سخاء كريم من ماله وعواطفه وجهده ، فقد سلك طريق الفلاح وكان من الفائزين « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وكان خلق الإيثار من الأنصار يقابل من المهاجرين بالعفة والقصد ، ولم يكن أحد منهم بالذى يغريه كرم الأنصار فيدفعه إلى الجشع والطمع أو التراخي عن العمل واستمراء حياة الكسل . ولكن خلق

الإيثار قبول من المهاجرين بالشكر والقناعة والإقبال على العمل التماساً للغنى والقدرة على الوفاء بالحقوق . فقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر<sup>(١)</sup> وانصرف إلى المدينة ، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوم من ثمارهم .

وروى أن سعد<sup>(٢)</sup> بن الربيع الأنصاري عرض على عبد الرحمن بن عوف المكي أن يشاطره ماله - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بينهما - فأبى عبد الرحمن ، وطلب إليه أن يدلّه على السوق ، وفيها بدأ يتجر حتى أصبح بعد زمن ليس بالبعيد ذا غنى ويسار .

وروى أن كثيراً من المهاجرين كانوا يأبون أن يعيشوا كلاً على غيرهم وكانوا يعملون في مزارع الأنصار<sup>(٣)</sup> .

وهكذا كان مجتمع المدينة بعد الهجرة يعيش حياة طيبة تظللها عواطف الإخاء والمحبة والإيثار والعفة والمجد ، وعز على اليهود أن يعيش المسلمون في صفاء وتعاون وتعاطف فحاولوا إثارة الخلافات الجاهلية بين الأوس والخزرج ليعكروا صفو المحبة والإخاء بين المسلمين ، وكان جزاؤهم العادل أن تطهر الأرض منهم . فأجلاهم الرسول عن المدينة وما حولها حتى لا يعوقوا الركب عن متابعة السير والجهاد لترتفع أعلام الحق والعدل والمحبة والإخاء .

( ١ ) خيبر واحة كبيرة على بعد نحو مائة ميل من المدينة ، كان يسكنها اليهود ، وكان لهم بها حصون ، وكانوا موصوفين بالمكر والخبث ، وقد غزاها الرسول في سنة ٧ هـ .

( ٢ ) صحيح البخارى ج ٥ ص ١٠٩ .

( ٣ ) مجلة الرسالة العدد ١١١٢ ص ١٨ .



## — ٨ —

ولا غرو بعد كل هذا أن يفوز المهاجرون والأنصار برضوان الله ورحمته وجنته ، فالمهاجرون لم يتركوا مكة رهبة من الكفر ولا رغبة في الدنيا ، ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ويبتغون فضلاً منه « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم »<sup>(١)</sup> « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون »<sup>(٢)</sup> « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسناً وإن الله هو خير الرازقين ، ليدخلهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حلیم »<sup>(٣)</sup> .

وأما الأنصار فقد آووا ونصروا وضربوا أروع الأمثلة في السخاء والإعطاء والحب والإيثار ، وما قاله الرسول في بيان قدر الأنصار « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » .

إن المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ورضوا عنه ، كانوا المؤمنين حقاً وصدقاً ، فأسبغ الله عليهم نعمه وجزاهم بما بذلوا وجاهدوا وصبروا خير الجزاء .

---

(١) الآية ٢١٨ في سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٠ في سورة التوبة .

(٣) الآية ٥٨ ، ٥٩ في سورة الحج . وإذا كان القرآن لم يفصل

القول عن المهاجرين والأنصار فإن كتب السيرة قد سجلت في تفصيل صوراً رائعة من الفداء والجهاد كما كان من أم سلمة وصهيب وغيرهما . والحديث عن هذا يحتاج إلى كتاب مفرد .

ولهذه المنزلة الجلية للمهاجرين والأنصار استحقوا فضل الله في التجاوز عن هفواتهم وتوفيقهم إلى اتباع طريق الرحمة والمغفرة ، في غزوة تبوك التي أومأت إليها فيما سلف ، يقول القرآن الكريم عن بعض المهاجرين والأنصار : «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم» (١) .

ويبدو من الآية أن بعض المهاجرين والأنصار هموا بالرجوع أو مالوا عن اللحاق في الجهاد (٢) . سبب ما كان من المخذلين والمنافقين والذين في قلوبهم مرض : ولكن الله - بفضله - تدارك قلوب هؤلاء فلم تنزع ، إنه بهم رءوف رحيم ، وتلك سنة الله مع أوليائه ، إذا أشرفوا على الهلاك والبوار أمطر عليهم سحائب جوده وفضله فلم يضلوا طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

وفي قصة الإفك التي ذكرها القرآن في سورة النور وردت هذه الآية (٣) «ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

وهذه الآية تتحدث عن موقف لأبي بكر رضى الله عنه مع مهاجر فقير يمت إليه بصلة القرابة هو مسطح بن أنانة ، وكان أبو بكر ينفق عليه ، ثم آلى ألا ينفق عليه لاشتراكه في إذاعة تلك الفرية المنكرة

(١) الآية ١١٧ في سورة التوبة .

(٢) القرطبي ج ٨ ص ٢٨٠ .

(٣) الآية ٢٢ من سورة النور .

الى تقول بها المنافقون على السيدة عائشة رضى الله عنها .

في السنة الخامسة للهجرة على أرجح الروايات بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن بنى المصطلق يجمعون له في حبيهم على مقربة من مكة وأنهم يحرضون عليه يريدون قتله ، فاستعد الرسول لحربهم وأخذهم على غرة كعادته في أخذ أعدائه .

و يهتم المؤرخون بتلك الغزوة لا لذاتها ولكن لما ترتب عليها ونتج عنها ، فمن آثارها تزوج الرسول من جويرة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، كما كان من آثارها حديث الإفك عن السيدة عائشة رضى الله عنها وهي لما نزل في السادسة عشرة من عمرها . وكان موقفها منه موقف إيمان وقوة تحطمت على جناباتها كل القوى وعنت كل الوجوه . ذلك أن الرسول لما فرغ من هذه الغزوة ودنا الجيش من المدينة قافلاً إليها ، توقف ليلة للاستجمام من وعناء الطريق ، ولتسعد المدينة لاستقبال الأبطال المتصرين ، ولما نادى مناد بالرحيل ، قامت السيدة عائشة لقضاء حاجتها ، فانقطع عقد لها من جزع ظفار فحسبها ابتغاؤه وظنت أن الذين سيحملون هودجها ليضعوه على بعيرها سيستنكرون خفة الهودج حين رفعه ، فلا يرحل الجيش حتى تجمع حبات عقدها ، لكن الذين حملوا الهودج لم يستنكروا خفته ، فقد كانت النساء خفافاً في ذلك الوقت . . .

وآبت السيدة عائشة إلى منازل الجيش فلم تجد أحداً ، فأقامت في مكانها وقد اعتقدت أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها ، لكن الذين يقودون راحلتها لم يدر بخلد أحد منهم أن السيدة عائشة ليست في هودجها .

وغلب النوم السيدة عائشة وهي جالسة في مكانها فنامت

وكان صفوان بن المعطل السلمى من الذين يسرون وراء الجيش ، يلتقطون ما قد يخلفه من سلاح أو أمتعة ، وكان الصباح قد أشرق حين وصل صفوان إلى منزل السيدة عائشة ، فرأى سواد إنسان نائم فدنا منه ، وكان صفوان يراها قبل أن يفرض الحجاب ، فاسترجع حين عرفها فاستيقظت السيدة عائشة على صوته ، فخمرت وجهها بجلبابها وأناخ صفوان راحلته ، وركبت السيدة عائشة دون أن تكلم صفوان أو يكلمها وعلى حد قولها<sup>(١)</sup> : « والله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه غير استرجاعه » .

وانطلق صفوان يقود الراحلة . حتى بلغ المدينة . فقال عبد الله بن أبى بن سلول شيخ النفاق عندما مرت به السيدة عائشة في هودجها : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها ، وسرعان ما سارت هذه القرية كمسرى غبار قدر أثارته عاصفة هوجاء في بطن الصحراء . فكانت في الآذان وقرأ ، كما كان الغبار في العيون أذى ، ولم يمض وقت طويل حتى رج صداها في جوانب المدينة فذعر المسلمون ، واستولى عليهم الغم والكرب ، وتبلبلت مشاعرهم وأفكارهم ، وران على جو المدينة سحب داكن من الحيرة والشك . وفترت ملاطفة الرسول للسيدة عائشة حتى أحست بذلك ولم تكن تدري شيئاً عما يخوض فيه الناس من حديث عجيب يחדش كرامتها ويلوث سمعتها ، فقد ألم بها مرض الحمى عقب وصولها إلى المدينة ، وتألم الرسول ألماً شديداً لما يسمع . وزاد من ألمه وحيرته أن الوحي لبث فترة طويلة لا يتزل عليه ، وقد كان يتوقع في كل حين نبأ

( ١ ) حديث الإفك - لمحمد الدسوقي ج ١٨ ط : المجلس الأعلى للشئون



من السماء يظهر الحق من الباطل ؛ ولجأ الرسول إلى الصحابة يستشيرهم  
 عليه يجد لديهم ما يكشف كربته . وهكذا كل إنسان عندما يشتد  
 به أمر من الأمور فإنه يهرع إلى سواه ليخفف عن نفسه بعض  
 ما ألم بها إن لم يكن عن طريق النصيح والإرشاد . فمجرد الإقضاء إلى  
 الغير بالآلام فيه عزاء وسلوى .

ونزل وحى الله بعد فترة ليعلن طهارة السيدة عائشة ، وليبدد الشكوك  
 والحيرة . ويكشف دعاة الإفك ويرشد المؤمنين إلى ما يجب عليهم في مثل  
 هذه الحالة . « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل  
 هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم  
 له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً  
 وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء  
 فأولئك عند الله هم الكاذبون » (١) .

وكان ابن سلول هو الذى تولى كبر هذه الجريمة الشنعاء ، وقد كرت كتب التاريخ  
 بعض الأسماء . كان لها دور الزعامة في الترويح لهذه القرية المنكرة .  
 وهى غير ابن سلول : حسان بن ثابت شاعر الرسول ، وحمنة بنت جحش  
 شقيقة أم المؤمنين السيدة زينب رضى الله عنها ، ومسطح بن أثاثه الذى يمت  
 إلى أبى بكر بصلة القرابة ، ثم زيد بن رفاعه الأنصارى .

وكان أبو بكر رضى الله عنه لما رأى اشتراك مسطح في إذاعة حديث  
 الإفك أقسم ألا ينفق عليه ، وكان أبو بكر في الواقع معذوراً في قسمه ،  
 لأنه في الجاهلية لم يبتل بهذا الذى ابتلى به في الإسلام ، وليس أدل على  
 مبلغ الألم الذى كاد يقطع نياط قلبه من قول السيدة عائشة ، وهى نصف  
 حالة أبويها وقت نزول الوحي على الرسول في بيت أبيها براءتها ، « وأما أبواي

فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس «<sup>(١)</sup> لقد كانت لحظة رهيبه قاسية فى حياة أبى بكر وزوجه .

لهذا لا يلام أبو بكر حين أقسم ألا ينفق على مسطح فجر يمتنه منكراً ، ولكنه بهجرته خلى بأن يتجاوز عما كان منه ، وأن يحظى بما كان يحظى به من عطف أبى بكر ورعايته .

ونزلت تلك الآية التى تدعو إلى العفو والصفح عن المهاجرين فهم أهل لهذا بما قدموا فى سبيل الله ، لقد جاهدوا جهاداً رفع عند الله منزلتهم ، وبدل سيئاتهم حسنات ففازوا برضوان الله وجنته ، وذلك هو الفوز العظيم .

وأعاد أبو بكر رضى الله عنه النفقة إلى مسطح ويروى أنه قال : « والله لا أنزعها عنه أبداً والله إنى أحب أن يغفر الله لى » .

وإذا كان المهاجرون أسبق إيماناً وجهاداً وذكروا فى القرآن أكثر من الأنصار ، فإن المفاضلة المسرفة بين المهاجرين والأنصار لا مسوغ لها ، ويكفى — كما أومأت إلى هذا — أن الله تعالى وصفهم جميعاً بأنهم المؤمنون حقاً وصدقاً .

رحم الله المهاجرين والأنصار ورزقنا للتأسى بهم فى الإيمان ، والفداء والجهاد حتى نكون أهلاً لنصر الله الذى كتبه لعباده المؤمنين المجاهدين المخلصين ، وصدق الله العظيم : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .



## هجرة أخرى

ذكرت في مقدمة هذه الدراسة أن حديث الهجرة في القرآن ليس خاصاً بذلك الحدث البارز في تاريخ الدعوة الإسلامية ، ولكنه تجاوزه إلى مطلق الصرم والترك والهجر . .

وقد وردت مادة « هجر » بهذا المعنى في القرآن سبع مرات : مرة واحدة في كل من النساء ومريم والمؤمنون والفرقان والمدثر وممرتان في سورة المزمل . .

وسأتناول في إجمال عرض الآيات التي وردت فيها مادة « هجر » حسب ترتيبها في المصحف .

### - ١ -

قال الله تعالى في سورة النساء<sup>(١)</sup> : «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً » .

هذه الآية بعض من دستور البيت وتنظيم السلطات فيه ، والإسلام يولي عناية خاصة بالأسرة من حيث قيامها واستقرار الحياة فيها ، ولأنه يسير على قاعدة توحيد القيادة في كل عمل حتى إذا كان اثنان في مهمة فليكن أحدهما أميراً ، ودفعاً للشقاق والتنازع في الرأي كان لابد للأسرة من قائد ومدبر وقاية لها من كل عوامل الاضطراب أو الفساد . ولم يكن

---

(١) الآية : ٣٤ .



اختيار الرجل للقوامة<sup>(١)</sup> امتهانا للمرأة وغضنا من قدرها ، ولكن الرجل بمقتضى فطرته أقدر على قيادة الأسرة من المرأة فضلا عن مسئوليته المادية من الإتفاق والبذل . ولا جدال في أن الإسلام كرم المرأة أعظم تكريم وجعل لها من الحقوق والواجبات ما للرجل سوى هذه الدرجة التي نصت عليها الآية الكريمة « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة »<sup>(٢)</sup> وهي درجة الرعاية والحماية والمسئولية لا درجة السيطرة والتمييز .

ثم تعرض الآية بعد تقرير تلك الحقيقة التي لا يمارى فيها إلا أعداء المرأة وإن زعموا أنهم يحامون عنها ، إلى لونين من النساء ، لون صالح تقي يحافظ على الهدوء والسكون والموافقة كما يحافظ على الأعراض والحرمات وبخاصة في غيبة الرجل ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك »<sup>(٣)</sup> . ثم تلا هذه الآية «الرجال قوامون على النساء . . . »

واللون الآخر التي عرضت له الآية هو لون يتوقع منه النشوز والإعراض والمخالفة ، وهذا اللون لو ترك وشأنه فإن الأسرة لا محالة سينفطر عقدها ، وما أحرص الإسلام على أن تظل الأسرة دائماً قوية مترابطة يحكمها الحب والود والإخلاص والتفاهم ، لذا رسمت الآية ما يجب إزاء هذا

---

(١) انظر تفسير المنار ج ٥ ص ٦٨ ، والمجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء للمرحوم الشيخ : محمد محمد المدنى ص : ٨٨ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) الآية ٢٢٨ في سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٧٠

اللون من النساء من خطوات لمعالجة ذلك النشوز الذى يهدد أمن الأسرة ويسلب حياتها التعاطف والتآلف وربما أدى إلى الطلاق وهو أبغض الحلال، إلى الله . .

والنشوز فى معناه اللغوى الارتفاع ، ويراد به فى الآية أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه ، وكان علاجه كما ذكرت فى خطوات :

الخطوة الأولى : « فعظوهن » وذلك عن طريق النصيح والتذكير بالخير فيما يرق له القلب أو التخويف من عواقب الشر على نحو من التحذير والتبصير ، وليس الوعظ مجرد نصيح وتحذير ، فمن أساليبه التسامح والإغضاء ، فقد يكون فى ذلك حض للزوجة على أن تتسامح وتذكر أن زوجها حريص عليها وأنه لا يواجه شدتها بالعنف والقسوة ولكن باللين والعفو والرحمة ، فتقلع عما هى عليه مقبلة من أسباب النشوز والخلاف . فإذا لم تنجح تلك الخطوة – وهى بلامراء تجدى مع بعض النساء – فمعنى ذلك أن طوراً آخر من أطوار الخلاف أو مقدمة أخرى من مقدمات النشوز قد بدأت تفعل فعلها ، من المناسب أن تقابل بما يتلاءم معها من التصرف والعلاج ، فكانت الخطوة الثانية « واهجروهن فى المضاجع » وفى هذا التعبير دلالة على امتعاض الرجل وضيقة مما بدر من زوجه أو تعزم على فعله ، والمرأة يؤلها أن ترى زوجها عابساً فى وجهها لا يشرق وجهه بالابتسامة كما يؤلها أن تشعر بأنه منصرف عنها ولا يهتم بها، فإذا كان هذا الانصراف وذلك الامتعاض فى المضجع وهو مظنة الشوق إلى الزوجة والإقبال عليها والتلطف معها ، أثار هذا المرأة مشاعرها الأنثوية الفطرية نحو الرجل وربما ردها إلى شىء من الحكمة والتواضع ، فحاسبت نفسها أو راجعتها ، وهذا هو السر فى أن التعبير جاء بالهجر فى المضجع ولم يكن بهجر المضجع ، لأن هجر المضجع – مع كونه

هجرأ - إلا أنه على صورة تساعد على تقبله أحياناً والصبر عليه وقتاً ما ،  
ولكن الهجر في المضجع أشد إفساحاً عن انصراف النفس فهو هجر مع  
قرب الدواعي وتيسرها<sup>(١)</sup> .

إن هذا الهجر موقف سلبي إلا أنه ذو تأثير ناجع في "حمل المرأة  
على أن تتخلى عن جريها وراء أهوائها أو انفعالاتها الجامحة ، وهو دليل  
على أن الزوج ذو شخصية قوية لاتضعف أمام الإغراء أو العناد ،  
وهذا يحول بين المرأة وبين التآدي في النشوز . . .

وقد روى أن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم اتفقت كلمتهن  
على أن يطلبن منه ما لا يقدر عليه ، لقد طلبن منه أن يمتعهن ويغدق  
عليهن ، لقد رأين المال يفيض بين يديه ، ورأين أنه ذو سلطان بين  
العرب لا يقل خطراً عن سلطان أمراء الروم والفرس ، فلماذا لايعشن  
في رغد كما تعيش نساء قيصر وكسرى والمقوقس . . .

ولم يستجب الرسول الكريم لما اتفقت عليه كلمة زوجاته ، وغضب  
منهن ، ثم هجرهن شهراً أو قرابته ، وكان هذا الهجر درساً قاسياً  
وعلاجاً ناجحاً ، كل منهن تتصل بما جرى ، وتلقى التبعة على غيرها ،  
ولما نزل قول الله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة  
الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن  
تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً  
عظيماً »<sup>(٢)</sup> دخل إلى حجرات أمهات المؤمنين وعرض على كل منهن واحدة  
واحدة ما أنزل الله في شأنهن ، فاخترن الله ورسوله . وظلل بيت النبوة

(١) انظر : المجتمع الإسلامي ، كما تنظمه سورة النساء ص : ١٧١ .

(٢) الآية ٢٨ ، ٢٩ في سورة الأحزاب .



الصفاء والسكون ، واتقشعت عن أفقه تلك السحابة التي أظلمته ردىاً<sup>(١)</sup> من الزمن .

بعد هذا الاستطراد الذى يتصل بهجر النساء الذى جاء خطوة ثانية فى معالجة بؤادر نشوز المرأة نجد أن الآية قد ذكرت خطوة ثالثة فى دفع النشوز إذا عجزت الخطوة الثانية عن ذلك « واضربوهن » وهو ضرب خفيف لا يؤذى وهو مع خفته لم يلجأ إليه إلا بعد اضطرار ، وليس المقصود به إهانة المرأة ، ولكن مواجهة الانحراف والشذوذ ، وطبعاً ليس كل النساء سواء فى العناد والاستجابة لمشاعر النزق والغضب ، ومنهن من تقنعها الكلمة الطيبة ، ومنهن من تحتاج إلى شيء من الحزم ومنهن من لا يجدى معها سوى الضرب فى عدل ورفق ، وهذا من أجل المحافظة على بنية الأسرة واستقرار حياتها .

والآية فى ختامها ترشد إلى أنه لا يجوز الانتقال من خطوة إلى التي تليها إلا إذا لم تنجح الخطوة السابقة « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً » ، ومعنى ذلك أن المرأة إذا فاءت بالنصح والوعظ إلى رشدتها ، فإن الأخذ بالخطوة الثانية أو الثالثة يكون تجنباً وبغياً وإساءة للسلطة التي هي للإصلاح بالمعروف وللتحكم والإذلال ، والله سبحانه وتعالى أعلى سلطاناً وقدرة ، فمن تجاوز سلطة أنعم الله بها عليه فسوف يلقي من العلى الكبير جزاء وفاقاً .

فإذا كان النشوز من قبل الزوج أو استحکم الشقاق بين الزوجين فقد رسمت آيات أخرى وردت فى سورة النساء العلاج والدواء ، ولا مجال هنا لتفصيل القول فى هذا الموضوع<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر : مجلة الرسالة ، العدد ٢٤٦ ص : ٤٦٥ .

(٢) انظر : المجتمع الإسلامى ص : ١٧٣ .



- ٢ -

وقال الله تعالى في سورة مريم (١): «قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجدك واهجرنى ملياً» .  
وهذه الآية طرف من حوار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وأبيه ،  
وقد جاءت على لسان الأب زجراً لولده وتهديداً له إن لم ينته عما يدعو  
أباه إليه بالرجم ، وأن يقطع صلته بأبيه دهنراً طويلاً وهذا هو معنى  
« ملياً » .

إن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه آزر الذى كان يعبد الأصنام  
« يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً » إنه يخاطب  
فى أبيه العقل المفكر الذى يجب عليه أن ينفر من تمجيد أصنام يصنعها  
القوم بأيديهم ، كيف تكون هذه الأصنام آلهة تعبد ، لاشك أن من  
يعبد هذه الأصنام فقد ألغى عقله ، وكان كالأنعام أو أضل سبيلاً .  
فهو يقول له : آلهتك التى تعبدها يا أبت لا تسمع ولا تبصر ولا تملك لك  
نفعاً ولا ضرراً فهل هى جديرة بالسجود لها .

ويتنقل بعد أن يخاطب فى أبيه العقل المفكر إلى أن يقول له « يا أبت  
إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً » إننى أعرف  
ما لا تعرف ، فهل تسمع لقولى وتتبع دعوتى فقيها الهداية إلى الدين القويم  
المستقيم . ثم يقول له « يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن  
عصياً » لقد تدرج معه ، دعاه أولاً إلى التفكير السليم فيما يعبد ، وأخبره  
بعد هذا بما لديه من اليقين ثم حذره من الرضوخ للشيطان فيما يأمر به

من الكفر والعصيان ، وينتقل أخيراً إلى التعبير عن مشاعره الحانية نحو والده ، وهي مشاعر صادقة لا يرتاب الآباء فيها إذا عبر الأبناء عنها ، « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً » إنه يخاف على والده من عذاب الله إذا مات على ما هو عليه من عبادة الأصنام ، وما أجمل التعبير « عذاب من الرحمن » إنه يجمع بين الرهبة والرغبة ، وبين العذاب والرحمة ، ويرشد إلى أن الله رحيم بعباده إذا ما استقاموا على طريق الهدى والفلاح فإن أبوا إلا المضي في سبيل الغواية والكفر فإن لهم عذاباً أليماً ، وصحبة مع الشياطين في نار الجحيم .

فإذا كان موقف آزر من ابنه بعد كل هذا ؟ لم يفتح قلبه وعقله لما قاله إبراهيم . وإنما انطلق يدافع عن الأصنام ، ويحذر ابنه من الرغبة عنها ، ويتوعده بالإهانة ويأمره بأن يهاجر بعيداً عنه « قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً » .

ولكن ماذا كان رد إبراهيم على أبيه وهو يسمع منه هذا التهديد والوعيد ؟ إن إبراهيم الصديق النبي يعلم أن أباه على ضلال ، وأن ما صدر عنه أملاه عليه الجهل والتقليد ، فجاء رده عليه : « قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً » .

إن أنبياء الله كانوا دائماً يدعون قومهم إلى الهدى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وزاد إبراهيم مع والده تحية المسألة والاستغفار له ، فالله بنبيه حفي . أى بار به لطيف يجب دعوته ورجاءه .

على أن موقف إبراهيم من أبيه وقوله له سأستغفر لك ربي يدل على وجوب معاملة الوالدين باللين والمسامحة والعطف بصرف النظر عن تباين العقائد بين الولد والديه حتى لو حاول الوالدان بآبئهما الإشراك بالله

وعبادة ما ليس له به علم ، فعليه في هذه الحالة أن يخالفهما ، ولكن دون الإساءة إليهما : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً » (١) .

لقد جمع الله في كتابه بين إفراده بالعبادة والإحسان إلى الوالدين وبخاصة عند الكبر . دلالة على مبلغ حقهما في الرعاية وحسن العشرة من قبل أولادهما ، وعلى جسامة الجرم في التهاون بهذا الحق وعدم القيام به كما يجب أن يكون ، وصدق الله العظيم : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . وانخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » (٢) .

### — ٣ —

وأما سورة المؤمنون فقد وردت بها مادة هجر في قوله تعالى : « مستكبرين به سامراً تهجرون » (٣) . وهذه الآية تتحدث عن كفار مكة وموقفهم من القرآن الكريم ، كما تتحدث عن هذا الموقف أيضاً آية الفرقان التي ذكرت فيها مادة هجر وهي : « وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » (٤) .

( ١ ) الآية ١٥ في سورة لقمان .

( ٢ ) الآية ٢٣ ، ٢٤ في سورة الإسراء .

( ٣ ) الآية : ٦٧ .

( ٤ ) الآية : ٣٠ .

إن القرآن الكريم هو معجزة محمد الخالدة التي حفظها الله من التغير والتبديل وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (١).

وهي معجزة تختلف عن سائر معجزات الأنبياء الذين بعثوا من قبله؛ فقد كانت معجزات هؤلاء الأنبياء، عليهم جميعاً الصلاة والسلام، تنهى بالوفاة، فموسى مثلاً عليه السلام كانت معجزته العصا تنقلب حية فتلقف ما يأفك به سحرة فرعون، وكذلك كانت معجزته أن يخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين، فلما توفي الله موسى انتهت هذه المعجزة وأصبحت خبراً يروى، وأيضاً معجزة عيسى عليه السلام، كانت إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، فلما توفاه الله إليه ورفعاه وطهره من الذين كفروا، أصبحت معجزته خبراً يروى، ولكن معجزة محمد ما زالت بين أيدينا كما أنزلت عليه، وهذا أنصع دليل على عموم رسالته وأنها خاتمة الرسالات؛ لأنها في كل زمان ومكان خطاب لكل فرد وحجة على كل ذى عقل: «فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها» (٢).

وهذه المعجزة التي أفحمت العرب، وهم فرسان البيان وأرباب القريض، وجدت من كفار مكة وزعماء الشرك فيها موقفاً يحسم عجزهم من الإتيان ببعض منها كما يحسم هلعهم من أن تستأثر بعقول العرب وتستحوذ على مشاعرهم فهرع إلى محمد كل القبائل لتؤمن بما يدعو إليه وفي هذا قضاء على دولة الأوثان والطغيان.

(١) الآية ٩ في سورة الحجر.

(٢) الآية : ٤١ في سورة الزمر.



إن العرب ، وإن مهرؤا في الشعر والخطابة وعرفوا بالبلاغة والفصاحة ، كانوا على يقين من أن ما جاء به محمد ليس من نسق ما يقولون وهم أعجز من أن يحاكيوه أو يقلدوه ، ولكن عصبية الجاهلية سولت لهم أن يحاربوا هذه المعجزة بمختلف الوسائل حتى يصرفوا الناس عنها ويزهدهم فيها . . ولكنهم بالرغم مما قاموا به باءوا بالخزى والهزيمة .

ومن الوسائل التي لجأ إليها كفار مكة لمحاربة القرآن وصد الناس عنه ، أنهم كانوا يحرضونهم على عدم سماع القرآن والتشويش على محمد : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »<sup>(١)</sup> قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول ، وقال مجاهد : المعنى « والغوا فيه » بالمكاء والتصفيق والتخليط في المنطق حتى يصير لغواً<sup>(٢)</sup> .

وقالوا عن الرسول إنه كذاب ، وإنه ليس أهلاً لما يدعيه من النبوة ، ونزول القرآن عليه ، وكان هذا محاولة لتفجير الناس منه والحكم على ما يتلوه عليهم بأنه ليس من عند الله : « أولئك الذكور عليه من بيننا بل هو كذاب أشير »<sup>(٣)</sup> .

وأضاف الكفار إلى اتهام الرسول بالكذب اتهامه بأن هناك من يعاونه ويمده : « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً »<sup>(٤)</sup> .

( ١ ) الآية ٢٦ في سورة فصلت .

( ٢ ) القرطبي ج ١٥ ص ٣٥٦ .

( ٣ ) الآية ٢٥ في سورة القمر وأشرأى مختال متكبر أو عابث فرح .

( ٤ ) الآية ٤ في سورة الفرقان .

إن الآية الكريمة تدمغ هؤلاء المتقولين بالظلم والزور ، لقد ظلموا محمداً إذ اتهموه بما يوقنون بأنه منه براء ، لقد عاش بينهم قبل البعثة مثالا حياً للأمانة والصدق ورعاية العهد ، فكيف يكذب على الله وينسب إليه قولاً لم يقله . .

وقص الله في كتابه على نبيه من قصص الأولين ما فيه عبرة وعظة :  
 « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى »<sup>(١)</sup>  
 ولكن هؤلاء الكفار قالوا عن هذا القصص الصادق : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا »<sup>(٢)</sup> .

وفي قولهم أساطير الأولين إشارة إلى بعدها في الزمان فلا يعلمها محمد ، صلى الله عليه وسلم ، إلا أن تملى عليه من حفاظ الأساطير الذين ينقلونها جيلاً بعد جيل ، لذلك يرد القرآن عليهم بأن الذي يعلمها على محمد ، هو الله الذي يعلم الأسرار جميعاً ولا يخفى عليه نبأ في الأولين والآخرين :  
 « قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً »<sup>(٣)</sup>  
 يعفو عن ينسب ويتوب .

وأهم كفار مكة أن يلقي محمد وفود العرب في الموسم ، لأنهم إذا سمعوا منه القرآن مالوا إليه وذاع ما ينادى به ، فأرادوا أن يصفوا الرسول بصفة تزهّد الوفود فيه ولا تجعلهم يؤخذون بما يلقيه عليهم من آيات الله .

اجتمع نفر من قريش لهذا وكان معهم الوليد بن المغيرة وكان ذا سن فيهم ، فقال : ماذا تقولون عن محمد ؟ قالوا : نقول كاهن ، قال :

(١) الآية : ١١١ في سورة يوسف .

(٢) الآية ٥ في سورة الفرقان .

(٣) الآية ٦ في سورة الفرقان .

والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة<sup>(١)</sup> الكهان ولا سجعه ، قالوا : نقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته<sup>(٢)</sup> ، قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه<sup>(٣)</sup> ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفهم ولا عقدهم<sup>(٤)</sup> ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق<sup>(٥)</sup> ، وإن فرعه بلحاة<sup>(٦)</sup> ، وما أنتم قائلون من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته<sup>(٧)</sup> . . .

وحظي هذا القول بالموافقة وانطلق به هؤلاء النفر لتحذير وفود العرب . فهل نجحوا في مسعاهم وشوهوا حقيقة محمد لديهم ؟ لقد جاءت النتيجة على غير ما يأملون ، وذاع خبر محمد بين القبائل ، وأسلم من سمع القرآن منه .

(١) الزمزمة كلام خفى لا يفهم .

(٢) بخنقه : أى الاختناق الذى يصيب المجنون ، والتخالج ، اختلاج الأعضاء وتحركها بلا إرادة ، والوسوسة ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان .

(٣) هذه كلها أنواع من الشعر .

(٤) إشارة إلى ما يفعله الساحر من أن يعقد خيطاً ثم ينفث عليه ، ومنه قوله تعالى : « ومن شر التفاتات فى العقد » أى الساحرات .

(٥) العذق النخلة ، يشبهه بالنخلة التى نبت أصلها وقوى وطاب فرعها .

(٦) أى فيه ثمر يجنى .

(٧) ابن هشام ج ١ ص : ٢٨٨ .

وأشار الكتاب العزيز إلى ما كان من الوليد ووصفه القرآن بالسحر :  
« فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » (١) .

وتوعد الله الوليد بعذاب شديد : « سأصليه صقر ، وما أدراك ما صقر  
لاتبقى ولا تذر » (٢) .

### — ٤ —

وكانت آية « المؤمنون » التي وردت فيها مادة هجر ، وكذلك  
آية الفرقان ، لوناً من ألوان موقف قريش من القرآن ، وهو موقف الإحساس  
العميق بأنهم يسمعون كلاماً ليس من صنع البشر وأن محمداً بهذا الكلام  
سيفسد على أهل مكة جاهها ونفوذها بين العرب ، فلم يتركوا باباً من  
أبواب الكيد والحرب ضد هذا الكتاب العزيز إلا وبلحوه .

وآية « المؤمنون » جاءت في معرض عقاب هؤلاء الكفار يوم الدين وأن  
ما هم فيه من العذاب إنما كان بسبب استكبارهم عن الحق وعدم إذعانهم  
له : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم ،  
إنكم منا لاتنصرون ، قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم  
تنكصون مستكبرين به سامراً تهجرون » (٣) .

إن المترفين أشد الناس ولعاً بالانحراف والذهول عن المصير ، فها هم أولاء  
يفاجأون بالعذاب الذي لا يرحمهم ، فإذا رفعوا أصواتهم مستغيثين فلا

( ١ ) الآية ٢٤ ، ٢٥ في سورة المدثر .

( ٢ ) الآية ٢٦ - ٢٨ في سورة المدثر .

( ٣ ) الآية : ٦٦ في سورة المؤمنون .



نصير لهم لاستعلائهم في الأرض وتراجعهم على أعقابهم إذا تليت آيات الله ، كأن هذا الذي يتلى خطر يحذرونه أو مكروه يتأون عنه ، وكانوا مع نكوصهم وطغيانهم واستكبارهم يطلقون ألسنتهم بهجر القول ، وهم يتحلقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة ، حيث ينالون من القرآن<sup>(١)</sup> والرسول . إن كلمة « تهجرون » . تعني الإفحاش في القول والبذاءة فيه . وكان كفار مكة في نواديهم وفي سمرهم يتخذون القرآن والرسول مادة للسخرية والهزء والاتهام مثل ما أومأت إليه آنفاً من قولهم عنه سحر وشعر وأساطير الأولين .

وأما آية الفرقان : « وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » فهي تعبر عن ذلك الموقف أيضاً ، وتشير إلى حزن الرسول لما يصدر عن قومه من قولهم في القرآن غير الحق<sup>(٢)</sup> ، أو لانصرافهم عنه .

لقد هجر هؤلاء القوم القرآن فلم يفتحوا له أسماعهم ، ولم يتدبروه ليدركوا الحق من خلاله ، وهجروه فلم يجعلوه دستور حياتهم ، وقد جاء

( ١ ) لعلماء التفسير آراء في عود الضمير في مستكبرين به ، فمنهم من ذهب إلى أنه يعود على الحرم ، ومنهم من قال الضمير عائد على القرآن ، وقالت جماعة هو عائد على الرسول . « انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧ » والراجح أن الضمير عائد على القرآن ؛ لأن الآيات تتحدث عن استكبار المترفين عن سماعه ، ولما كان استكبار هؤلاء عن آيات الله ، وتهجمهم عليها يستتبع حتماً الهجوم على الرسول أمكن القول بأن إفحاش المترفين شمل القرآن والرسول .

( ٢ ) جاء في بصائر ذوي التمييز ج ٥ ص : ٣٠٤ ت الأستاذ عبد العليم الطحاوي : « إن مهجوراً تعني أنهم قالوا فيه غير الحق ، وذكر القرطبي ج ١٣ ص ٢٧ أنها تعني أيضاً متروكاً » .

ليكون منهاج حياة يقودها إلى سعادة الدارين .

وهم مع هذا كانوا لا يتورعون عن السخرية والاستهزاء والقول السيئ .  
ولألم الرسول لأنه لم يأل جهداً في دعوة قومه ، فلم يستمعوا لهذا القرآن  
ولم يقدروه ، يعزیه ربه ويسليه ، فتلك هي السنة الجارية قبله في جميع  
الرسالات ، فلكل نبي أعداء يهجرون الهدى الذي يجيئهم به ، ويصدون  
عن سبيل الله ، ولكن الله يهدي رسله إلى طريق النصر على أعدائهم  
المجرمين : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً  
ونصيراً » الفرقان آية ٣١ .

## — ٥ —

وفي سورة المزمل وردت مادة « هجر » مرتين في قوله تعالى :  
« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً » . .

إن سورة المزمل من <sup>(١)</sup> أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، وكان الرسول  
بعد أن عاد من غار حراء وهو يرجف فؤاده لما رأى من الملك الذي  
هبط عليه وطلب منه أن يقرأ ، ثم أسمعته آيات وعاماها الرسول وآب إلى  
زوجه جزعاً خائفاً ، قال لها : « زملوني زملوني » أي لفوني بالثياب ونام  
في فراشه ، وكأنه أراد الاستخفاء عن الملك وإراحة نفسه من عناء  
الطاريء الحديد ، وما خامر قلبه من الهول الشديد ، ولم يدر أنه الناموس  
الذي كان ينزله الله على إخوانه الأنبياء والمرسلين قبله .

---

( ١ ) انظر تفسير جزء تبارك للمرحوم الشيخ عبد القادر المغربي ص ١٧١

وربما كان طلب الرسول التلطف بالثياب لقشعريرة برد شعر بها في جسمه .

ونزل الوحي على الرسول يخاطبه بأن يترك هذا التزمل والتلفف ويعد نفسه لتحمل مهمة جليلة ورسالة سامية ، وهذا الإعداد يتمثل في القيام لله بالليل وقراءة القرآن ومجاهدة النفس : « يأيها المزمّل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو نقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » . إنه الوحي الذي يتضمن الدعوة إلى دين جديد ، وتبليغه إلى الناس وتكليفهم العمل بأحكامه ، ولاريب أن ترك ما ألف الناس من العقائد ونبت ما ورثوه من أسلافهم من التقاليد سيكون أمراً ثقيلاً شديداً الوطأة عليهم ، ولهذا فالرسول معرض لمتاعب كثيرة في سبيل هذا الدين الجديد ، وحتى يواجه هذه المتاعب بعزم لا ينخور ، وهمة تعشق الجهاد وتستعذب الشدائد ، أمر بأن يقوم الليل ويرتل القرآن ، ولأثر هذا في الاستعداد لتحمل مشاق الدعوة ومتاعب تبليغ هذا الوحي ، تكرر الحديث عن قيام الليل : « إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قبلاً . إن لك في النهار سبحة طويلاً » . أي أن تقلبك في النهار واشتغالك بمهمات الدعوة المقدسة سيساعدك عليه قيام الليل ودراسة القرآن . . .

وبعد أن قررت الآيات هذه المقدمات التي هي بمثابة التمهيد للدعوة انتقلت إلى أمر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بأن يذكر ربه ويدعو إليه وينقطع لهذه الدعوة : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً » إنه رب كل شيء ، وعليه أن يعتمد في دعوته : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً » .

ويأتي بعد كل هذا الأمر بالصبر ، وتحمل ما يلقي من قومه : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً » . . . والهجّر هنا يعنى علم

مقابلة أذاهم بمثله والإعراض عنهم إعراضاً لا يشوبه شتم ولا مقاومة ، لا قطع صلته بهم والنأي عنهم فقد بعث إليهم ، ولا بد أن يدعوهم إلى ما أمر بتبليغه ، وهم سيعارضونه ويتقولون عليه الأقاويل ، فعليه أن يصبر ويتجلد ويعرض إعراضاً جميلاً ، يغضى عن الإساءة ويكون الإحسان رداً عليها .

لقد أمر محمد بأن يخاطب قومه بالحسنى وأن يدعوهم إلى الله بالحكمة التي تقضى بالتذرع بالصبر وضبط النفس وتحمل الأذى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) .

كما أمر بأن يصبر كما صبر غيره من الأنبياء ، فما بعث نبي إلا وكا بد من قومه صنوف المشقات ، ولاقى منهم كثيراً من الأذى والاضطهاد ، ولكنهم تجملوا بالصبر والتحمل والإغضاء حتى أتم الله عليهم النعمة وحقق لهم النصر والغلبة : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » (٢) .

وبهذا الأسلوب كان محمد يدعو أهل مكة ؛ يسيئون إليه فيحسن إليهم ، ويفحشون له في القول فيعرض عنهم ويهجرهم ، ويصبون عليه وعلى من آمن به الأذى فيصبر ، ويدعو الله لهم بالهداية لأنهم لا يعلمون .

وما كانت حروب الرسول صلى الله عليه وسلم انتقاماً من قومه ، فقد كان يمكنه بعد فتح مكة أن يثار منهم كما يشاء ، ولكن الحروب التي خاض الرسول نعمارها بعد الهجرة كانت لتحقيق الحرية الدينية والقضاء على الطغاة الذين يفرضون على الناس ما يعبدون . . .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان المثل الكامل ، والأسوة الحسنة في

( ١ ) الآية ١٢٥ في سورة النحل .

( ٢ ) الآية ٣٥ في سورة الأحقاف .



مكارم الأخلاق ، وكان لما اتصف به من حلم ، وسماحة نفس ، ورقة قلب وسعة صدر وعفة لسان ، وكرم عفو ، أثر في نجاحه في دعوته ، وصدق الله العظيم : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك » (١) .

## - ٦ -

ووردت مادة « هجر » في سورة المدثر مرة واحدة في قوله تعالى :  
« والرجز فاهجر » .

وكلمة المدثر مشتقة من الدثار ، وهو اسم الثوب الذي يلبس فوق الشعر ، والشعار الثوب الذي يلي الجسد مباشرة ، ومعنى المدثر أى المتلفف في دثاره . .

وأوائل هذه السورة من أوائل ما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أن الرسول بعد أن لقنه جبريل سورتي اقرأ ، ويا أيها المزمل ، فتر الوحي عنه زمناً ، ثم نادى الملك فتجلى للرسول ثانية فعراه صلى الله عليه وسلم مما كان عراه في المرة الأولى فجاء بيته وقال لأهله : « دثروني دثروني » (٢) وبينما هو متدثر جاءه الملك فخاطبه قائلاً : « يا أيها المدثر قم فأنذر » .

(١) الآية : ١٥٩ في سورة آل عمران .

(٢) تفسير جزء تبارك ص ١٩٢ ، ويرى بعض المفسرين أن تدثر الرسول لم يكن بسبب تجلى الملك ، ولكن بسبب إيذاء قومه له حتى شق عليه ذلك يوماً فجلس حزيناً في بيته متدثراً بشيابه مفكراً في أمره ، وسواء كان تدثره عليه السلام لهذا أو ذاك فإن الوحي نزل عليه يحضه على الهبوب من المضجع والتشمير للدعوة الحاتمة .

إنه أمر من الله بأن ينهض للأمر العظيم الثقيل ، إنه نذارة البشرية وإيقاظها من سبات الجهل والمنكر والشر وتوجيهها إلى طريق الخلاص والسعادة في الدارين .

ثم تلا هذا الأمر الكريم خمس آيات من بينها تلك الآية التي ذكرت فيها مادة « هجر » وهذه الآيات تعد دستور الدعوة والسلاح الماضي الذي يتحصن به الرسول من الأخطار التي ستعرض طريقه ورسالته : « وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر . »

والآية الأولى توجيه للرسول صلى الله عليه وسلم إلى تكبير ربه ، فهو وحده الكبير الذي يستحق التكبير ، وهو توجيه للرسول ليواجه نذارة البشرية ومتاعبها وأهوالها وأثقالها بهذا التكبير الذي يتضاءل إلى جانبه كل العقبات والمشقات .

وأما الآية الثانية فهي دعوة إلى تحرير النفس من سوء الأخلاق وردىء الحصول « وثيابك فطهر » وهذا التعبير في الاستعمال العربي كناية عن طهارة القلب ، والخلق والعمل ، طهارة الذات التي تحويها الثياب وكل ما يلم بها أو يمسسها .

ثم تنص الآية الثالثة على هجر الرجز وهو في أصل معناه العذاب ثم كثر استعماله في كل ما أوجب العذاب وأدى إليه من المعاصي والآثام .

وهذه الآيات الثلاث التي لا تتجاوز بضع كلمات استوعبت أمهات الفضائل الإنسانية ، لأنها تحرر العقل من سلطة الأوهام بتقرير عقيدة التوحيد ، وإفراد الله بالتعظيم والتعجيد ، وتحرر النفس من سوء الأخلاق وردىء الحصول بالحض على الآداب الرفيعة والصفات

الحميدة ، وهى مع هذا لا تغفل حظ الجسد من وقايتة شر الآثام  
الوبيلة والمعاصي المهلكة .

وإذا توفر للإنسان صلاح العقل والنفس والبدن فقد توفرت له  
السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة ، وبقدر ما ينقص من ذلك يخسر  
من سعاداته ويدنو من شقاوته<sup>(١)</sup> .

وليس معنى أمر الله لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، بتحرير عقله ونفسه  
وبدنه أنه كان قد أصابه شيء من دنس الجاهلية ، فقد ثبت بالنقل  
المتواتر الذى لا ريب فيه أنه ، صلى الله عليه وسلم ، كان كاملاً فى عقيدته  
هاجراً للشرك ، كاملاً فى نفسه ، فلم يتلوث بخلق ذميم ، كاملاً فى  
جوارحه ، فلم يقترف معصية قط .

لقد عافت فطرة النبي السليمة قبل البعثة ذلك الانحراف الذى كان  
فيه قومه ، فلم يسجد لصنم قط ، ولا شرب الخمر ولا لعب الميسر  
ولا اقترف شيئاً من موبقات الجاهلية ، ولو كان فعل شيئاً من هذا  
لكان قومه بعد البعثة قد أخذوا عليه ما يدعوه إلى البعد عنه ، لكنهم  
اتهموه بالسحر والشعر والكهانة وطلب الملك ، وما قالوا عنه : غادر أو  
خائن أو كذاب أو أنه سجد مثلهم للأصنام والأوثان .

إذا كان الأمر كذلك فما ذا يعنى هذا التوجيه للرسول ؟ إنه يعنى  
طلب الدوام على ما هو عليه وتذكيره بأنه ، صلى الله عليه وسلم ، مزود  
من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على القيام برسالته فضلاً عن  
أن هذا التوجيه يعنى أيضاً بداية عهد جديد فى حياة الرسول صلى الله  
عليه وسلم .

ثم تتحدث الآيتان التاليتان عن صفتين هما أشد ما يلزم للقيام بالدعوة، أية دعوة كانت دينية أو دنيوية، سياسية أو اجتماعية ، تانك الصفتان هما: الجود والصبر ، فلا يمكن قط أن ينجح داع في دعوته وهو ممسك شحيح ، كما لا يمكن أن ينجح فيها إذا كان ملولاً جزوعاً ، لا يستشعر الصبر والدأب والإلحاح . .

« ولا تمنن تستكثر » أى لا تعط وأنت مقدر في نفسك أن ما تعطيه كثير ، والإعطاء يشمل إتفاق المال والجهد في سحاء . إن القيام بأعباء الرسالة يحتاج إلى بذل ضخيم لا تحتمله النفس ، إلا حين تنساه ، بل حين لا تستشعره من الأصل ؛ لأنها مستغرقة في الشعور بالله شاعرة بأن ماتقدمه هو من فضله وعطاياه .

« ولربك فاصبر » إنها الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة . إن الصبر هو الزاد الأصيل في معركة الدعوة إلى الله ، وهي معركة عنيفة طويلة لازاد لها إلا الصبر الذي يقصد به وجه الله ، ويتجه به إليه احتساباً عنده وحده .

إن هذه الآيات التي نزلت على الرسول الكريم وهو مقبل على الاضطلاع بمهمة جليلة مقدسة ، إذا كانت توجيهاً له عليه السلام ومنهجاً لدعوته ، فهي بالنسبة لجميع المسلمين منهج للسلوك ، والدعوة إلى الله ، فكل مسلم عليه أن يتعهد عقله بالتطهر من أدران الآراء الفاسدة والأفكار المنحلة الدخيلة والاتجاهات الإلحادية الضالة ، ونفسه من الأخلاق الذميمة والصفات البغيضة ، وبدنه من كل ما يوهنه حتى يكون المسلم بذلك كله جديراً بحمل أمانة الدعوة إلى الله على تباين درجاتها وميدانها . يرى كل ما يبذله في سبيلها — مهما عظم — بعض ما يجب عليه .



وأخيراً ؛ فهذا حديث القرآن عن الهجرة غير التاريخية، عرضت له في إجمال ، وهو يتناول كما رأينا جانباً يتعلق بالصلة بين الرجل والمرأة ، تلك الصلة التي يجب أن تقوم في نظر الإسلام على المحبة والمودة والرحمة والتعاون ، وما فرض هذا الدين القويم من تعاليم قد يراها قصار النظر لا تتفق مع كرامة المرأة وشخصيتها إلا حفاظاً على تلك الصلة وتمكيناً لها بين الرجل والمرأة ، ولعل من أجل ذلك كان فصم عرى تلك الصلة من أبغض الحلال عند الله .

والجانب الآخر الذي عرض له حديث الهجرة هذا يتناول بعض مواقف الكفار من الرسل ومعجزاتهم وما يجب أن يكونوا عليه لينهضوا بما كلفوا به .

على أن الهجرة في هذا الحديث لا تعني مجرد الترك والصرم ، ولكنها مع هذا تعني الضجر والكراهية والنفور ، وربما كان هذا سبباً للنص على أن يكون هجر الرسول لقوه جميلاً ، والله أعلم .

كلمة لا بد منها :

## لا هجرة بعد الفتح

كانت الهجرة إلى يثرب فرضاً قبل فتح مكة ، وكان من لم يهاجر من المؤمنين ، فلا ولاية بينه وبين إخوانه من المهاجرين والأنصار ، وكان ذلك حتى يتجمع المسلمون في المدينة ليكونوا قوة تأخذ على أيدي أعدائهم ، وتمكن لدينهم بين الناس فلا يصدّهم عنه طاغ أو مستعل في الأرض .

وهذه الهجرة قد فرضت على المؤمنين فرضاً ، وأكرهتهم ظروف مختلفة على ترك ديارهم وأموالهم وأهلهم ، وهم مع هذا كانوا فرحين بها مستبشرين ، لأنهم ينصرون الله ورسوله . ويجاهدون في الله حق جهاده ..

إن الجاهلية ، كما أسلفت ، قد ناوأَت الدعوة الجديدة مناوأة حاكمة باغية لاتعرف رحمة ولا عدلاً ، ومكث الرسول بين قريش كما قال أحد الأنصار :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقي صديقاً موثقاً  
لبث الرسول في قومه ثلاث عشرة سنة يذكرهم ويدعوهم إلى  
الإسلام ، وهم لا يزدادون إلا عتوا واستكباراً ..

فكانت الهجرة أمراً لا مفر منه ولا سبيل إليه حتى لا يستمر الشرك بصلفه وطغيانه وعناده ، يضع الأشواك والعقبات في طريق دعوة التوحيد والوحدة والإخوة والمساواة والحرية .

وأثمرت الهجرة ثمراتها المباركة ، فقامت في المدينة أول دولة إسلامية حققت في أمد وجيز أعمالاً خالدة ، كانت قممها فتح مكة في العام الثامن بعد الهجرة وتطهير البيت الحرام من الأوثان والأصنام ..

وبعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، وبعد أن دالت دولة الشرك والبغى ، روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا »<sup>(١)</sup> .

ويذهب كثير من العلماء إلى أن المراد بنى الهجرة بعد الفتح هو نبي الثواب العظيم الذي أعده الله للمهاجرين الأولين ، فمن هاجر بعد الفتح فتوبه لن يكون كثواب هؤلاء المجاهدين السابقين ، ومعنى هذا أن الهجرة باقية إلى يوم القيامة وأن النبي في الحديث ليس منصباً على وقوع الهجرة بعد الفتح ، ولكن على الثواب الذي يناله المهاجرون .

ولا أرى فيما ذهب إليه عامة العلماء في تأويل الحديث وقصر النبي فيه على ثواب المهاجرين حجةً تطمئن إليها النفس وينزل عند حكمها العقل ، فالحديث واضح في نفي الهجرة بعد الفتح ، وحمل هذا النبي على معنى خاص دون دليل قاطع لا يمكن التسليم به ، وأود أولاً أن أذكر أن الهجرة قبل الفتح كانت جماعية شملت المؤمنين كلهم ، بحيث عد من لم يهاجر خارجاً عن المؤمنين المهاجرين فلا تربطه بهم روابط المؤاخاة والموالات ، وأن الهجرة كانت تحولا من وطن إلى وطن فراراً من الإرهاب والإعنات ، فهل تظل مثل هذه الهجرة الجماعية ويظل التحول الجماعي من وطن إلى وطن قائماً بعد الهجرة وبعد أن أصبح للمسلمين شوكة ودولة ..

(١) صحيح مسلم بتحقيق المرحوم الأستاذ فؤاد عبد الباقي . ص ١٤٨٨

قد يقول قائل إن الظروف التي أبلأت المسلمين قبل الهجرة قد تتحقق في عصر ما بالنسبة لمجموعة من المسلمين في وطن ما ، فتكون الهجرة فرضاً عليهم وإن كان جزاؤهم عليها لا يصل إلى جزاء من هاجروا من مكة إلى المدينة . .

ومثل هذا القول مرفوض ، وما قال الرسول ذلك الحديث إلا لإبطاله وإدحاضه ولنفي كل الأسباب التي أدت إلى الهجرة قبل الفتح من الضعف والقلّة وتحكم الطغاة .

إن هذا الحديث يرشد المسلمين إلى حقيقة يجب أن تكون ماثلة أمام كل مسلم حتى لا ينسى رسالته في الحياة ، وحتى يكون دائماً صورة حية للإنسان الكريم العزيز ، الذي يخوض غمرات الشدائد ذياراً عن كيانه ووجوده ودفعاً لكل إثم أوضم يناله .

وهذه الحقيقة التي يرشد إليها الحديث هي أن المسلم لا يفرط في وطنه ولا يستسلم لعدوه ، وعليه أن يتخذ العدة التي تكفل له الحياة التي خلق من أجلها وأمر بالحفاظ عليها والموت دونها ، وهي حياة العزة والكرامة « والله العزة ورسوله وللمؤمنين » .

إن الهجرة فرضتها ظروف معينة وقد ذهبت تلك الظروف بعد فتح مكة ، فإذا تحققت بعد ذلك للأمة الإسلامية فيأثم ما اجترحت أيديهم وما فرطوا في أمر أنفسهم ودينهم ، ذلك الدين الذي يدعو إلى القوة والخير في كل مجالات الحياة حتى يكون دائماً للمسلمين منزلة القيادة والريادة التي أرادها الله لهم .

والجهاد في سبيل الله ما كان ماضياً إلى يوم القيامة إلا لدفع كل اعتداء تتعرض له الأمة الإسلامية وما نال هذه الأمة في تاريخها القديم والحديث من ظلم واضطهاد حتى طردت من الأندلس بعد أن عاشت هناك نحو



ثمانية قرون ، وحتى طردت من فلسطين وقامت فيها دولة من اللصوص والعصابات تخطط في حقد وكيد لقيام إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، ما حدث كل هذا إلا لأن المسلمين نسوا أو تناسوا أن دينهم دين قوة في العقيدة والبدن والعدة والوحدة .

إن الأمة الإسلامية صاحبة رسالة خالدة ، ولن تستطيع حمل هذه الرسالة إلا إذا كانت قوية يخشى بأسها ، ويخطب ودها ، على أن قوة الإسلام إنما هي لخير البشرية وسعادتها ، فهي قوة لاتسعى لاستغلال الشعوب وانتهاك حرمت الإنسان ، ولكنها سلاح يحمي الحق وينصره ويقضي على الظالمين والمعتدين .

إن الحديث الشريف حين ينفي الهجرة بعد الفتح فإنه ينفي كل الأسباب التي أدت إلى الهجرة قبله ، ويشير إلى ما يجب أن تكون عليه الأمة الإسلامية من القوة والإعداد للجهاد ، في كل وقت حتى تدفع عن أرضها الغزاة ، وحتى تكون على أهبة الاستعداد للتفكير وحمل السلاح إذا ما اعتدى على بلد مسلم ، وحتى لو وقع الاعتداء على فرد واحد « وإذا استنفرتم فأنفروا » .

ويحدثنا التاريخ أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة في يد الروم في معركة من تلك المعارك التي كانت تنشب بين المسلمين والروم في زمن الدولة العباسية ، وكانت تلك السيدة تعيش مع سيدها الرومي في مدينة عمورية ، وفي ذات يوم لطمها ذلك السيد العليج على وجهها الحر الكريم فوخزها ألم الذل وخزة صاحت على أثرها تستنجد بالخليفة العربي العظيم : « وامعتصماه ، وامعتصماه » .

وسخر السيد الرومي من المرأة قائلاً لها : « وماذا عسى أن يفعل المعتصم أيحيى على أبلق وينصرك ؟ إنك ذليلة كسيرة ، وقد كتبت عليك

الشقوة، وهيات أن يستجيب لندائك هذا الذي تنادين، ثم أشبعها ضرباً  
ولكمأ وهي تنادى، وامعتصماه، وامعتصماه.

وجاء رجل إلى المعتصم وبلغه نبأ هذه المسلمة الكريمة، فانتفضت  
نفس الخليفة الجليل انتفاضة الألم، وتجهز من فوره في اثني عشر ألف فرس  
أبلى تطوى سنايكها الأرض طياً لتغيث الملهوف، وتستجيب للنداء الأبي.  
وكانت عمورية مدينة حصينة، وبها من جنود العدو تسعون ألفاً  
أو يزيدون وحاصرها المعتصم، وأخبره المنجمون أنها لن تفتح إلا في الصيف  
حين ينضج التين والعنب، وكان قدومه إليها في زمهرير الشتاء، ولكن  
المعتصم أبى أن يستمع لصوت المنجمين المثبطين وشد على المدينة شدة  
بطل مغوار فدك أسوارها وأشعل النار فيها.

ودخل المعتصم عمورية وبحث عن تلك المرأة التي استغاثت به حتى  
وجدتها وقال لها: هل أجابك المعتصم؟، وصار سيدها عبداً ذا ذليلاً (١).  
ورحم الله أبا تمام حين مدح المعتصم وتحدث عن ذلك الفتح المبين  
مستهزئاً بآراء المنجمين:

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحدين الجحد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في	متونهن جلاء الشك والريب
أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم	صفر الوجوه وجلت أوجه العرب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت	جاودهم قبل نضج التين والعنب

وأما الهجرة الفردية فقد كانت في عصر البعثة لطلب العلم والتفقه  
في الدين، وكانت أيضاً فراراً بالعقيدة من الأذى والاضطهاد،  
فكان الرجل إذا أسلم وأقلم بين قوم كافرين تعرض للإعنات والإرهاب  
فلا يجد بداً من الهجرة إلى أرض يتمتع فيها بحريته الدينية الكاملة.

والهجرة من أجل العلم باقية وادئمة ولا يسوغ لعاقل القول بغير هذا ، لأن الإسلام دين العلم والمعرفة والنظر والتدبر ، فأول كلمة نزلت من دستوره الخالد تعد مفتاح العلم ، وآيات هذا الدستور تحض في مواطن كثيرة على النظر والتفكير ، وتبين أن العلم يخدم الإيمان وأن المرء كلما ازداد علماً ازداد من الله خشية ، وأنه لا مساواة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

لقد فتح الإسلام أمام العقل البشري مجالات البحث والعلم ودعا إلى الهجرة وراء المعرفة ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها وعند من رآها طلبها<sup>(١)</sup> .

وكان أسلافنا من العلماء يتقلون من بلد إلى بلد ويهاجرون من قطر إلى قطر من أجل العلم وخدمته فحققوا تلك النهضة العلمية التي قادت البشرية نحو التقدم والحضارة .

وأما الهجرة الفردية خوف الفتنة في الدين فإن العلماء يقولون ببقائها واستمرارها إلى يوم الدين ، فعلى كل مسلم أن يهجر دار الشرك إلى دار الإيمان إذا لم تحقق له تلك الدار الحرية الدينية والشخصية .

ولا جدال في أن المسلم يرفض المهانة والذلة في دينه ودنياه ويجود بكل ما يملك فداء لعقيدته وكرامته ، ومن هنا فإنه لا يقبل أن يحيا بين قوم ينالون من حرمة الدين وإن كان يرقل في رغد العيش ومتاع الحياة الدنيا .

إن الهجرة الباقية إلى يوم القيامة هي هجرة المساوي والتوبة منها لاهجرة الأوطان ، والتخلي عنها ، وقد روى مسلم في « كتاب الإمارة »

( ١ ) انظر الفلسفة القرآنية للأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد .



من صحيحه عن أبي عثمان النهدي أن مجاشع بن مسعود السلمي قال :  
جئت بأخي « أبي معبد » إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد  
الفتح فقلت يا رسول الله بايعه على الهجرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قد  
مضت الهجرة بأهلها » قال مجاشع : فبأي شيء تبايعه ؟ قال : على الإسلام  
والجهاد والخير ، قال أبو عثمان النهدي : فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول  
مجاشع فقال : صدق .

وروى من حديث فضالة بن عبيد بن فاقد أن النبي صلى الله عليه  
وسلم قال في حجة الوداع : « ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من آمنه الناس على  
أموالهم وأنفسهم ، والمسلم ؟ من سلم الناس من لسانه ويده ، والمجاهد ؟  
من جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر ؟ من هجر الخطايا والذنوب » (١) .

وعن أبي هند البجلي قال : كنا عند معاوية بن أبي سفيان وقد غمض  
عينه ، أخذته سنة من النوم ، فتذاكرنا الهجرة والقائل منا يقول قد انقطعت ،  
والقائل منا يقول لم تنقطع فانتبه معاوية ، فقال ما كنتم فيه ؟ فأخبرناه —  
وكان قليل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال تذاكرنا عند رسول  
الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لاتنقطع الهجرة حتى تنقطع  
التوبة ، ولاتنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » (٢) .

إن الهجرة من مكة لاتعد سابقة للمسلمين في هجرة أوطانهم إذا  
تعرضوا للاضطهاد ، لأن تلك الهجرة كانت لها ظروفها الخاصة التي  
أصبحت الأمة الإسلامية بعد الفتح يجب ألا تتعرض لها عن طريق هجرة  
الضعف العقلي والعلمي والحضاري والحربي ، وهجرة الضعف الخلقي والنفسى  
والجسدى حتى يكون المسلمون دائماً أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .

(١) مسند الإمام ابن حنبل ج ٦ ص ٢١ ط أولى .

(٢) الفتح الرباني ج ٢٠ ص : ٢٩٦ .





خاتمة



## دروس ونتائج

وبعد، فما الذى تقدمه هذه الدراسة من نتائج، وما الذى تهدي إليه من عظات ودروس . .

إن كل ما أسلفت يمكن أن يرشد إلى ما يلي :

١ - يظهر الحق على الباطل بمدى إخلاص المؤمنين بالحق ، وبذلهم الأموال والمهج فداء له ، وتقبلهم الشدائد بصبر لا يعرف اليأس وعزيمة تزيدها الصعاب مضاء وإصراراً على بلوغ الغاية مهما يكن الثمن .

فالمؤمنون في مكة قبل الهجرة على حق فيما يدينون به ويدعون إليه ، والجاهلية المتغطرسة على باطل فيما تقوم به من اضطهاد وتعذيب ، وقوة أولئك وعددهم لا توازن بجانب قوة هؤلاء وكثرتهم ، ولكن القلة المؤمنة صبرت وصابرت وأخلصت وجاهدت فحقق الله لها النصر والغلبة وكانت عاقبة الباطل الهزيمة والبوار : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » (١) .

فلا سبيل إذن لأهل الحق إن أرادوا لحقهم العزة ، والنصر من أن يعيشوا له ويعملوا في إخلاص من أجله لا يرهبهم سلاح الباطل وإن كان فتاكاً ، لأن الموت في ساحة الذود عن الحق أسمى ما تطمح إليه نفوس أهله والمؤمنين به ، أما إذا أخلدوا إلى الوهن والكسل وظنوا أن السماء لن



تدع حقهم فريسة للباطل فهم واهمون . لأن نصر الله لا ينزل على الغافلين المهملين ، ولكن على المخلصين المجاهدين : «يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» (١) .

٢ - لم تكن الهجرة في جوهرها فراراً وهروباً ولم تكن غاية في ذاتها ، ولكنها كانت أمراً لامفر منه ولا سبيل إلا إليه حتى تستطيع الرسالة الحاتمة أن تحيا في بيئة لا تعرف الذل أو العبودية ، لأنها رسالة الكرامة والعزة والإباء .

لقد كانت الهجرة أسلوباً عملياً في نشر الإسلام والدعوة إليه ، بعد أن فقد الرسول الأمل في مكة ، فقد صيرها المشركون بيئة فاسدة لاتصلح لنشر تلك الدعوة الجديدة .

٣ - وهؤلاء الطغاة الذين ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء أبوا أن يكون الناس أحراراً فيما يدينون به ، فهم يسومون أتباعها مختلف ألوان الأذى والعنت لكي لا يؤمنوا بما يشاءون ، وليظلوا على دين الآباء لا يصبأون عنه .

وهذا بلا جدال حجر على حرية الإنسان في عقيدته ، وإكراه له على أن يؤمن بما يفرضه عليه السادة والطغاة ، وإذا عاش الإنسان في ظل هذه العبودية ورضي بها فلا قيمة لحياته . ولا اختلاف بينه وبين الأنعام ؛ بل هذه خير منه لأنها حرمت ما منحه الله له .

ولأن الإسلام رسالة عالمية خالدة جاءت لتحرر البشرية من الشرك والظلم ، ولتعيد إليها كرامتها وعزتها وتخلصها من نير الاستبداد وحكم الطغاة ليحيا الناس أحراراً أبداً ، كانت الهجرة لتحقيق هذه الحرية للناس

جميعاً ، فلا يعلو في الأرض سلطان فوق سلطان الله ولا يكون لأحد سبيل على الناس فيما يؤمنون به .

إن الهجرة بتضحياتها العزيزة كانت ثمناً للحرية الدينية والإنسانية التي كانت البشرية في أمس الحاجة إليها في ذلك الزمن .

٤ - وليست الحروب في الإسلام ، سواء تلك التي قامت بعد الهجرة أو عبر عصور التاريخ الإسلامي ، إلا لحماية هذه الحرية والتمكين لها ، ولم تكن لحمل الناس قسراً على الإيمان لأنه : لا إكراه في الدين ، ولأن العقيدة الصحيحة في نظر الإسلام أساسها الاقتناع القائم على المنطق والوجدان ، وكل من يقول بغير هذا فهو إما جاهل أو حاقد ، والزعم بأن الإسلام قام على السيف أو أن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي يهضمون الحقوق والواجبات لا يقوم على دليل أو حجة وليس إلا أسلوباً من أساليب التشويه والتشكيك .

٥ - والهجرة كانت عملاً منظماً يخضع للتخطيط العلمي الدقيق ، وكان هذا من عوامل نجاحها وآية على أن التوكل الحق على الله يجب أن يصحبه العمل المخلص والسعي الممكن ، وأن من قصر في الجهد ولم ينل ما يتمنى فلا يلومن إلا نفسه .

إن قدرة الله لا يعجزها أن يأوي محمد إلى فراشه ليلاً في مكة لتبزع شمس اليوم التالي وهو في المدينة دون أن يلجأ إلى غار ودون أن يستعين بمن يأتيه بأخبار أو يدلّه على طريق هجرته ، ودون أن يتحمل ما تحمل من وعاء السفر في طريق طويل كله صخور ورمال ، فضلاً عن شدة الحر وتوقع الخطر في كل شعب أو ذروة جبل ، ولكن قضت مشيئة الله أن تكون الهجرة على هذا النحو من الجهاد والتنظيم والتخطيط فعلٌ بها أوضح دليل على أن تأييد الله لأوليائه وعباده منوط بما يبذله

هؤلاء من جهد وعمل .

لقد ذاق محمد صلى الله عليه وسلم النصر بعد مرارة الصبر والكفاح والنضال ، وكان ربه قادراً على عصمته من أذى الناس إلا أنه جل شأنه أراد به ذلك حتى يفتح أعين الذين آمنوا على سته في خلقه ، فلا يغتروا بانتسابهم إلى الإسلام من غير جهاد ، أو يستسلموا إلى الوهن وهم يحسبون أنهم على ربهم يتوكلون<sup>(١)</sup> .

٦ - والهجرة إلى المدينة كانت لغاية كبرى كما أومأت آنفا وهي تحقيق الحرية للناس . وهي بهذا تفرق عن الهجرة إلى الحبشة التي كانت محددة بهدف الإيواء المؤقت حتى يجعل الله فرجاً للمؤمنين مما هم فيه من اضطهاد وإرهاب ، أما الهجرة إلى المدينة فلم يكن هدفها الإيواء المؤقت ، ولكن كان هدفها الانطلاق وتكوين قاعدة إسلامية يتشرف بها الإسلام<sup>(٢)</sup> . ولهذا ؛ فالهجرة إلى المدينة كانت مطلع فجر جديد للإنسانية ، وكانت حداً فاصلاً بين عصرين مختلفين كل الاختلاف ، عصر التخلف العقائدي والفكري والإنساني . وعصر الحرية والتقدم والازدهار في مجال الإيمان واحترام الإنسان .

استطاع المسلمون بعد الهجرة إلى المدينة أن يقيموا الدولة ، فقد تيسر لها كل أسباب قيامها من الأرض والناس والحكومة والقانون . وبهذا استقر المسلمون في مهجرهم ، وعاشوا أحراراً في مزاولة شعائر دينهم ، وأصبحوا قوة لها وزنها وتأثيرها في الجزيرة . وتمكنوا بعد نحو ثمانية أعوام أن يعودوا إلى مكة فاتحين غانمين . وكانوا قد خرجوا منها من قبل مستخفين مطاردين .

(١) مجلة الرسالة - العدد ٨٦١ صفحة ٣٤ .

(٢) مواقف إسلامية ، صفحة : ١٠٥ .

ومن قاعدة الإسلام الأولى في المدينة أرسل النبي كتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ويبلغهم ما بعث به .

٧ - وإن مما يدعو للدهشة أن يقبل الأوس والخزرج - وهم ليسوا من العدد والثروة والعتاد الحربي على درجة أفضل من قبائل العرب - أن يحموا دعوة ليس في بلاد العرب كلها من يعيرها أدنى عطف، أو يرجو لها أقل نجاح .

إن الأوس والخزرج حين هاجر بعض اليهود إليهم هرباً من الاضطهادات الرومانية ما كانوا يستطيعون أن ينتصفوا من هؤلاء اليهود، فكيف يجرؤون على حماية دعوة يمكن أن تجتمع على مكافحتها جميع قبائل العرب، وقد أظهرت استعدادها لذلك بما أبدته قريش نحوها من الكراهة وما عاملت أهلها به من الاضطهاد والمقاطعة<sup>(١)</sup> .

ولكنه الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب واستولى على المشاعر والضمائر حول الضعف قوة والخوف أمناً والفرغنى وعزاً، والجهاد غاية والشهادة أمنية، فلا تقدر قوة على حربه، أو الوقوف في طريقه .

٨ - وهذا الإيمان الذي حول الأوس والخزرج إلى أنصار يأوون ويبدلون ويجاهدون هو الذي نزع من قلوبهم ما كان بها من أحقاد وأضغان وجعلهم إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين . وما يوم بعث<sup>(٢)</sup> عنهم ببعيد .

(١) انظر مجلة الأزهر المحرم سنة ١٣٦٢ ص ١٣ .

(٢) بعث اسم موضع في الجنوب الشرقى من المدينة اشتهر بالواقعة التي جرت بين الأوس والخزرج (القاموس الإسلامى للأستاذ - أحمد عطيه الله) وانظر في أحداث يوم بعث مختار الأغاني لابن منظور ج ٢ ص : ١٣١ ت الأستاذ عبد الستار فراج .



ويوم بعث هو آخر أيام الحروب بين الأوس والخزرج ، وكان قبيل الهجرة ، وفيه جرت بين القبيلتين معركة رهيبية ، وكان اليهود قد أذكوا بينهما أسباب الشقاق والصراع ، لتضعف قوتهم ويفنى رجالهم فيكون لليهود النفوذ والسلطان ، واليهود هم الذين حاولوا بعد أن أسلمت الأوس والخزرج وصفت نفوسهم من أحقاد الجاهلية أن يذكروا هؤلاء بأيام حروبهم ليفرقوا جمعهم ويشعلوا نار العداوة من جديد بينهم . وكاد اليهود ينجحون في بعض ما حاولوا لولا أن الرسول تدارك الأمر بحكمته ولباقته وخطب في الأنصار قائلاً لهم : « الله الله أيها الأنصار ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » . وانجلت عن الضمائر والقلوب تلك الغشاوة الوثنية التي سعى بها اليهود لتطمس نور الحق ومشاعر الود والإخاء والحب ، وأدرك الجميع أنها فتنة الشيطان تمكر بهم وتحقد عليهم ، فسالت دموع الحزن لما فرط منهم . وألقوا سلاحهم من أيديهم وتعانقوا وعاد لهم صفاؤهم وحبهم وحبطت سياسة الوقيعة والحياة والشر .

٩ - وإذا كان الإيمان قد غير الأوس والخزرج وجعلهم يداً واحدة وهم كانوا بالأمس القريب يقتتلون ، فهو الذي حمل المهاجرين على أن يدعوا كل شيء في مكة . ويفروا بعقيدتهم إلى الله ورسوله .

وهناك من صور الفداء والتضحية التي تعد أصدق تعبير عن الإيمان والقوى والجهاد الخالص الكثير ، يكفي هنا أن أشير إلى طرف منها وبخاصة ما يدور في فلك الهجرة وأحداثها .

فهذا على كرم الله وجهه ورضى الله عنه ينام في فراش النبي وهو يعلم أن البيت محاط بفتية يحملون السيوف ليقتلوا صاحب هذا الفراش ، لقد رضى سعيداً أن يتغلى بردة النبي وأن يواجه خطر الموت ، فداء للرسول ودعوته .

ولا يفعل ما فعله على إلا أصحاب العقائد الراسخة والذين يعيشون من أجل ما يؤمنون به ويموتون في سبيله ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

وهذه أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها ، كانت تتسلل إلى الغار تحمل الطعام إلى الرسول وأبيها ، وكانت عرضة لأن يراها أحد القرشيين فيسومها أشد ألوان العذاب حتى تخبره بمكان الرسول ، وليس ما كان من أبي جهل من لطمها على خدها حين ذهب إلى بيت أبي بكر ، وسألها عن مكان أبيها فأنكرت أنها تعرف عنه شيئاً إلا صورة مصغرة لما كان يمكن أن ينزله الكفار بها لو رآها أحد وهي تحمل الطعام إلى الغار، لكن أسماء لم تفكر في شيء من هذا : وما كان يشغل بالها إلا أن تصل إلى الغار لتزود من فيه بالماء والطعام ، كان يقينها أقوى من بطش الطغيان وفداؤها صورة رائعة لجلال الإيمان .

١٠ - وأما أم سلمة فقد جرت لها في هجرتها أحداث لا يقوى على تحملها إلا من رزق إيماناً لا تزعزعه النكبات ولا تزيد الشدائد إلا قوة وإخلاصاً وجهاداً .

لقد وقف أهلها ضد رغبتها في أن تهجر مع زوجها وعجز زوجها عن إقناعهم في أن يتركوا زوجها وما تريد ، فلما حالوا بينها وبين زوجها تقدم أهل الزوج إليهم يريدون أن يضموا « سلمة » الابن الصغير إليهم ، ولا يأخذوه أخواله ، وعمد هؤلاء إلى ذراع الصبي وأمسكوا به ، وكان أخواله ممسكين باليد الأخرى ، وما زالوا يتجادبونه حتى خلعوا كتفه ، فأعوات أمه واشتدت الضوضاء . وأخيراً غلب أهل الزوج وأخذوا الطفل .

أما أبو سلمة المسكين فكان مشدوهاً مما يجري أمامه ، ومع ما رأى ،

امتطى راحلته وولى وجهه شطر المدينة تاركاً ابنه وزوجته إلى كلاءة الله .  
وبقيت أم سلمة في مكة عند أهلها ، أما ابنها ففى بيت أعمامه ،  
وكانت فى كل صباح تخرج إلى الأبطح حيث يجتمع الناس للترهة  
فتندب حظها وتندب شجوها صارخة وازوجاه ، واولداه .

ولبثت على ذلك حتى مر بها رجل من بنى عمها فرحمها ورثى لها  
وكلم قومها فيها فخرجوا ، وقالوا لها : الحق بزواجك .

وتسرع أم سلمة لتأخذ طفلها وتركب بعيرها وحدها دون أن يرافقها  
أحد فى هذا الطريق الموحش الطويل ، ولن تعدم لصاً أو حيواناً ضارياً  
يقطع عليها طريقها ، لقد كان معها الإيمان الذى عمر قلبها ، فما جعلها  
تفكر فى شيء غير أن تصل إلى مهجرها وتلحق بزواجها .

لقد قالت لعثمان بن طلحة . الذى لقيها عند التنعيم<sup>(١)</sup> وسألها : أو ما معك  
أحد ؟ : لا إلا الله وابنى هذا . ومن كان الله معه فلا يخاف إلا الله .

وأبى ابن طلحة - وكان مشركاً على دين قومه ثم أسلم - أن يدع أم  
سلمة تسير وحدها ، وأخذ بخطام بعيرها وكان نعم الرفيق فى رحلة من  
رحلات الجهاد التى قل نظيرها فى تاريخ البشر .

وكانت أم سلمة بعد ذلك إذا حدثت عن هجرتها تقول : ما رأيت  
قط صاحباً فى سفر أكرم من عثمان بن طلحة<sup>(٢)</sup> .

١١ - ومن أجل كل هذا كانت الهجرة أجل الأحداث أثراً وعبراً ، وكانت  
خليقة بكل احتفاء واهتمام لتكون للمسلمين أبداً مصدر وحى للإيمان  
الصادق ، والحب العميق ، والإيثار الكريم والبطولة الفريدة ، والتضحية

( ١ ) مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة .

( ٢ ) مجلة الرسالة - العدد ٩٦٦ ص ٧ .



علي دسوقي





الرائعة والتنظيم العلمي الدقيق ، وكان من توفيق الله أن اختار عمر بن الخطاب حادثة الهجرة لتكون مبدأ لتاريخ المسلمين .

إن العرب قبل الإسلام كانوا كغيرهم من الأمم المبتدئة يؤرخون بالأحداث العظيمة التي تمر بهم وتؤثر في حياتهم كأيام العرب المشهورة في حروبهم ، والتي من أشهرها عام الفيل الذي ظلوا يؤرخون به حتى ظهور الإسلام ، وكذلك حرب الفجار .

وبعد ظهور الإسلام اتخذ المسلمون عدة نقط زمنية بدءاً لتأريخهم ، فتارة كانوا يقولون : حدث كذا قبل البعثة بسنة أو بستين ، أو بعدها بكذا سنة ، وأحياناً كانوا يؤرخون بالغزوات فيقولون في عام الخندق ، أو بعد بدر بعامين ، وهلم جرا .

وكان مثل هذا النظام كافياً للتحديد الزمني الذي كانت تتطلبه حياة المجتمع يومئذ ، فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وتشعبت فروعها وتعدد نشاطها كان لا بد لها من نظام ثابت للتاريخ ينسب إلى نقطة زمنية معينة ، وتتبعه الدولة في جميع أنحائها ، فإن من دواعي الخلط وسوء النظام أن يكتب الخليفة مثلاً إلى وال في الشام كتاباً يؤرخه في السنة السابعة والعشرين من البعثة النبوية ، فيرد عليه الوالي بكتاب يؤرخه بالسنة كذا من بدر .

١٢ - وأول من فكر في اتخاذ نظام ثابت للتاريخ في الإسلام هو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان ذلك جزءاً من تنظيماته العامة للحكومة الإسلامية ، ففي السنة الثالثة من خلافته جمع وجوه الصحابة وقال لهم : إن الأموال قد كثرت وما قسمنا منها غير مؤقت - أي غير محدد بتاريخ ينضبط به - فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك ، ولقد رفع إلى صك محله شعبان فلا أدري أي شعبان هو ؟ الذي مضى ،

أو الذى نحن فيه ، أو الآتى ؟ ضعوا شيئاً للناس يعرفونه .

وتناقش القوم فى الأمر ، فقال قائل منهم اكتبوا على تاريخ الروم ، وقال قائل اكتبوا على تاريخ الفرس ، ولكن عمر أئ أن يجعل تاريخ الإسلام على تاريخ أمة الفرس أو أمة الروم ، وأراد أن يجعله على مبدأ لحادث إسلامى ، فأشار بعضهم بأن يجعلوه من عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أو من عند مولده ، ولكن الإمام علياً كرم الله وجهه أشار بأن يجعلوه منذ خرج النبي صلى الله عليه وسلم من أرض الشرك، يعنى يوم هاجر من مكة إلى المدينة، فراقت الفكرة لعمر بن الخطاب والمسلمين ، فاتفقوا على أن يكون مبدأ التاريخ من سنة الهجرة .

١٣ - ولما كانت الهجرة حدثت فى أواخر شهر صفر أو أوائل ربيع الأول ، وهو الرأى الراجح ، فإن الصحابة بعد أن اتفقوا على أن تكون الهجرة مبدأ التاريخ تعددت آراؤهم فى الشهر الذى يبدأ به هذا التاريخ ، ثم استقروا على الأخذ برأى عثمان رضى الله عنه ، بأن يؤرخوا من المحرم أول السنة وهو شهر حرام ، وأول الشهور فى عدة العام ، وهو منصرف الناس من الحج وأول شهر يتفرغون فيه إلى أعمالهم بعد اشتغالهم بالمناسك ، وبذلك رجعوا نحو شهرين وجعلوا التاريخ من أول محرم هذه السنة ، وكان الزمن بين الهجرة واتخاذها مبدءاً للتاريخ سبعة عشر عاماً<sup>(١)</sup> .

وبهذا يتضح أن الهجرة وإن ارتبطت ذكراها فى أذهان المسلمين كل عام بشهر المحرم ، فإنها لم تقع فى هذا الشهر ، وإنما وقعت فى أواخر صفر أو أوائل ربيع الأول على أرجح الآراء .

وظل التاريخ الهجرى وشهوره القمرية العربية خاصة للمسلمين وللعرب إلى اليوم ، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

١٤ - وهذه الهجرة التي نحتفي بها في كل عام لم تكن الهجرة الوحيدة في تاريخ الرسل والأنبياء ، وإن طغت بآثارها وأبعادها على ماعداها من الهجرات التي غبرت قبلها . .

وكانت هجرة نوح عليه السلام أول هجرة في تاريخ الرسل ، وكانت حياة له ولن آمن به وهلاكاً لأعدائه والساخرين منه .

دعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غيره من الأوثان والأصنام ألف سنة إلا خمسين عاماً وهم لايزدادون منه إلا بعداً ونفوراً إلى أن ضاق صدره بما يلاقى منهم ، فدعا عليهم فقال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »<sup>(١)</sup> . فأنبأه الله أن العذاب سيحل بهم ، وأمره ألا يخاطبه فيهم ، وأنهم مغرقون ، وأوحى إليه أن يصنع الفلك لينجو بها من العذاب النازل وليهاجر بها عنهم .

وصنع نوح الفلك وكان قومه كلما مروا به سخروا منه وقالوا له : « أتصنع سفينة تمشى على الأرض » .

وجاء أمر الله وفار التنور وتفجرت ينابيع الأرض وهطلت السماء وجاء الطوفان فأباد الطغاة والمشركين ونزل نوح ومن معه في السفينة وسلك فيها زوجين اثنين من كل ذى حياة .

واستقرت السفينة على الجودي بعد فترة تجاوزت العام فيما يقال<sup>(٢)</sup> ، وانتهت بذلك أول هجرة ميمونة في سبيل العقيدة .

١٥ - وفي سورة العنكبوت وردت الآية التالية : « فأمن له لوط وقال

( ١ ) الآية : ٢٦ ، ٢٧ من سورة نوح .

( ٢ ) مجلة الرسالة العدد ١٤٦ ص ٦٣٤ .



إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ، (١) .

والآية تشير إلى قصة إيمان لوط عليه السلام بسيدنا إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً . .

قال ابن اسحاق : آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته وآمنت به سارة وكانت بنت عمه (٢) .

وتذكر بعض الروايات أن إبراهيم كان عم لوط لا خاله (٣) .

ومهما يكن من تباين الروايات حول صلة لوط بإبراهيم فإن الذي تحدثت عنه الآية أن لوطاً آمن بإبراهيم ، وأنه هاجر (٤) معه من أور الكلدانيين في العراق إلى ما وراء الأردن حيث استقر بهما المقام .

ويذهب بعض المفسرين إلى أن الذي قال إني مهاجر إلى ربي هو سيدنا إبراهيم ، غير أن سياق الآية يرجح أنها جاءت على لسان لوط عليه السلام .

وقوله : « إني مهاجر إلى ربي » تعبير عن غاية تلك الهجرة ، إنها لم تكن هجرة طلباً للنجاة أو سعياً وراء مغنم مادي ، لكنها هجرة إلى الله ، تقرباً إليه ، بعيداً عن موطن الكفر والضلال .

وإذا كان سيدنا إبراهيم انتهت دعوته لقومه دون أن يؤمن به منهم

( ١ ) الآية : ٢٦

( ٢ ) تفسير القرطبي ج ١٣ ، ص : ٣٣٩ .

( ٣ ) مجلة الرسالة - العدد ١٤٦ .

( ٤ ) يقوى هذا ما روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عن عثمان

رضي الله عنه حين هاجر إلى الحبشة معه زوجته رقية : « إن أول مهاجر إلى الله بعد لوط عثمان بن عفان » .

إلا فردان هما : لوط وزوجته سارة ، ثم ترك وطنه ولجأ إلى الشام ، فإن الله تبارك وتعالى عوضه عن هذا بذرية تمضي فيها رسالة الله إلى يوم الدين ؛ فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت في ذريته ، وهو عوض ضخم في الدنيا والآخرة .

«ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين»<sup>(١)</sup> .

وهو فيض من العطاء جزيل يتجلى فيه رضوان الله سبحانه على رجل أخلص لله بكلية ، وأجمع الطغيان على حرقه ، فكان كل شيء من حوله برداً وسلاماً وعطفاً وإنعاماً ، جزاء وفاقاً .

١٦ - وأما سيدنا يعقوب عليه السلام فقد كان بينه وبين أخيه عيسو شيء من الخلاف ، فهاجر إلى بلاد ما بين النهرين عند خاله لابان ، ومكث عنده يرعى عليه غنمه ، وتزوج من ابنتيه ليئة وراحيل ، ومن جاريتهما زاني ويلها ، ورزق منهن أولاده جميعاً ، وكانت هجرته خيراً وبركة عليه ، فقد صار رب أسرة عظيمة كثيرة العدد ، وأموال وماشية كثيرة ، وعاد إلى فلسطين بعد ذلك ، وولد له في هجرته جميع أولاده إلا بنيامين .

١٧ - ولما ذهب إخوة يوسف به وألقوه في الحب تخلصاً منه حتى لا يستأثر دونهم بمحبة والده ، كان هذا بداية لهجرة أرغم عليها يوسف ، وهو لما يزل صغيراً ، ولكنها كانت خيراً عليه وعلى أهله وعلى الناس جميعاً . . .

لقد التقط يوسف من الحب بعض السيارة ثم باعوه بثمن بخس لعزيز مصر ، وفي قصر هذا ، روادته امرأة العزيز عن نفسه فاستعصم

(١) الآية : ٢٧ في سورة العنكبوت .

وأنهمته وتقولت عليه ، وزج به في السجن لتظهر آيات فضله ، وليث في السجن بضع سنين إلى أن رأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف مهزواة ، وسبع سنبلات خضر غلبهن سبع سنابل يابسات ، وصار العماء والسحرة والعرافون في حيرة ولم يستطيعوا تفسير ذلك المنام ، فذكر بعض من عرف يوسف في السجن ، واستعبره الرؤيا ، أمر يوسف إلى الملك ، فأذن له بأن يذهب إليه ويستفتيه فيما رآه الملك ، ففسر له الرؤيا على وجهها ، ثم اصطفى الملك يوسف لنفسه وجعله على خزائن الأرض ودبر أمر مصر إلى أن جاءت سبع سنوات مخصبة خزن فيها ما زاد على الحاجة ، ثم فتح مخازن الادخار في السنوات المجربة فأطعم الناس وأنقذوا بذلك من هلكة الجوع .

وجاء إخوته إليه فعرفهم وهم له منكرون ، فداعبهم ودبر لهم تدبيراً حتى جاءوه بأخيه بنيامين ثم عرفهم بنفسه ، وقال لهم : « اثمنوني بأهلكم أجمعين » .

١٨ - وكان موسى عليه السلام قد ألقته أمه في اليم خوفاً عليه من فرعون فالتقطه هذا ، ونشأ في قصره ولما ترعرع وقتل القبطي وأنهى خبر القتل إلى فرعون اجتمع ملاً فرعون وقومه على قتل موسى ، فجاء إليه رجل من آل فرعون من أقصى المدينة يسعى وقال له : « إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين » فخرج خائفاً يترقب قائلاً : رب نجني من القوم الظالمين .

وتوجه شطر مدين على خليج العقبة دون زاد أو دابة أو رفقة أو دليل ، ولما بلغ ماء هذه المدينة بعد الجهد الشديد والجوع المضني وجد على الماء أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما عن الحوض ، فلم يعجبه أن يتقدم أولوا القوة وتتأخر المرأتان فسألها

عن شأنهما ، فقالتا لانسق حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسق لهما  
ثم تولى إلى الظل يشكو إلى الله حاجته إلى القوت وما به من مخصصة  
قائلا : « رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » .

وجاءت إحدى المرأتين تمشي على استحياء وقالت له في خفر :  
« إن أنى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » .

وقص موسى على الشيخ قصته فعرض هذا عليه أن يزوجه من إحدى  
ابنتيه على أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشرأ فمن عنده .

ولما قضى موسى الأجل . وصار حراً صادف أن أبعد في الوادى وضل  
الطريق في ليلة مظلمة باردة وحاول أن يقدح ناراً ففصلد زنده ولم تشعل ناراً ،  
وبعد لآى آنس من جانب الطور ناراً : « فقال لأهله امكثوا إني  
آنست ناراً لعل آتيكم منها بخبر أو أجد على النار هدى . فلما أتاها  
نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس  
طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى  
وأقم الصلاة لذكري»<sup>(١)</sup> . وبعد حوار أرسله الله إلى فرعون فكان مما قصه  
القرآن الكريم من شأنه مع فرعون وشأنه مع بنى إسرائيل ؛ فكانت هجرة  
موسى خيراً وبركة عليه وعلى بنى إسرائيل ، كما أجاب فرعون بقوله :  
« ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين»<sup>(٢)</sup> .

١٩ — أما المسيح عيسى بن مريم فله هجرة ليست كهجرة الأنبياء  
الذين هاجروا من بلادهم .

ذلك أنه لما ولد كان هناك ملك من قبل الرومان أخبر أن ملك-

(١) سورة طه : الآيات من ١٠ - ١٤ .

(٢) الآية : ٢١ فى سورة الشعراء .



اليهود ولد في بيت لحم ، فجد في قتل الأولاد الذين ولدوا في بيت لحم في تلك الأيام ، فأمرت مريم بأن تهجر بابنها ومعها خطيبها يوسف النجار ، فذهبت إلى مصر وأقامت فيها مدة قيل إنها كانت سبع سنين أو أقل ، إلى أن أمرت بالرجوع إلى فلسطين بعد أن هلك من كان يقتل الأولاد طلباً لقتل ولدها .

وهذه الهجرة نص عليها في إنجيل برنابا ، ولاوجود لها في سائر الأناجيل المعروفة ، فهجرة المسيح عليه السلام كانت تابعة لهجرة أمه خوفاً عليه ولم تكن بإرادته (١) .

وهكذا ، بيد أن محمداً بهجرته لم يكن بدعاً من الرسل الذين هاجروا من قبل ، وأن كل نبي لاقى من قومه الشدائد والأهوال وتحمل كثيراً من الصعاب . وتعرض لمختلف الأخطار ، واتهم بالكذب والادعاء : « وإن يكذبوك فقد كذبت من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » (٢) .

٢٠ - أكد المهاجرون بما جاهدوا وأكد الأنصار بما بذلوا وآووا تلك الحقيقة الخالدة وهي أن الإيمان يفعل المعجزات ، وأنه عطاء بالنفس وللبدن والمال والأهل والوطن .

كما أكدت المؤاخاة بينهم على أن صلة العقيدة فوق وشائج القرني ، وأن رحم الإيمان أقوى من رحم الأبدان ، وأن المؤمنين جميعاً أمة واحدة..

(١) اعتمدت في الحديث عن هذه الهجرات على البحث الذي نشرته

مجلة الرسالة العدد ١٤٦ بعنوان « هجرة الرسل » .

(٢) الآية ٤٢ - ٤٤ في سورة الحج .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » (١) ، وأن هذه الوحدة تفرض على المؤمنين التكافل والنواد والتراحم ، لأنهم كما شبههم الرسول الكريم : كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

إن صلة العقيدة بين المؤمنين كانت ولا تزال مناط قوتهم ومنعتهم وترابطهم فإذا وهت هذه الصلة كان ضعفها دليلاً على دخول في إيمانهم وسبيلاً لتفريقهم وبلوغ الأعداء منهم ما يطمعون .

وما حقق المسلمون في تاريخهم المجيد من بطولات وانتصارات إلا بفضل إيمانهم القوي الذي جعل منهم يداً واحدة وما تعرضوا لما تعرضوا له قديماً وحديثاً من نكبات ومشكلات إلا حين فرطوا في جنب الله ، وتفرقوا وما كانوا ينجون من الأخطار التي تطبق عليهم إلا إذا اعتصموا بحبل الله ، واجتمعوا على كلمة الله . ونبذوا كل أسباب الفرقة والشحناء كما حدث في حرب التار والصلبيين .

ونحن اليوم نواجه أخطاراً بالغة الأثر فيجب أن نعمل في إخلاص ودأب على دفعها والقضاء عليها ، ولا سبيل لهذا غير وحدة تتسامى فوق الأشخاص والارغبات والأهواء ، وهو واجب تقاضاه العقيدة قبل أن يتقاضاه حق الحياة .

لقد مزقنا الاستعمار وأرث فيما بيننا أسباب الصراع ، ليظل له النفوذ والاستغلال ، فهو وإن لم تكن جيوشه تدنس بلادنا ، أو أعلامه ترفرف فوق ربوعنا ، فقد تحالف مع الصهيونية الباغية على مرقه ديارنا وأموالنا وإقامة دولة دخيلة في ربوعنا تكون كالشوكة في ظهورنا وتشغلنا عن بناء قوتنا ، وتنمية ثروتنا ، فنبقى ضعافاً لا حول لنا ولا قوة . .

(١) الآية ١٠٣ في سورة آل عمران .

٢١ - الهجرة الدائمة الباقية ، هي هجرة السيئات والذنوب ، وما يقال من أن هجرة الأوطان باقية ، وإن نفي الرسول للهجرة بعد الفتح إنما هو خاص بنبي جزاء الهجرة من مكة ؛ إذ أن ثواب المهاجرين بعد الفتح ، ليس كثواب غيرهم من المجاهدين السابقين غير صحيح .

إن حب الوطن من الإيمان ، والدفاع عن أرضه جزء من الدفاع عن العقيدة ، والمرء بلا وطن لاجئ أو مطرود ، والمسلم رجل عزيز أبي يرى الشهادة خيراً من حياة الهوان . فكان من أجل ذلك مسئولاً عن تحقيق العزة لنفسه ، ولغيره وكان تفريطه في ذلك ثلماً في عقيدته ، قبل أن يكون ثلماً في كرامته .

٢٢ - وقد كرم الإسلام المرأة أعظم تكريماً ومنحها حقها كالرجال سواء بسواء ، وليس التباين اليسير بينهما إلا استجابة لسنة الفطرة التي تفرض تنظيماً للعلاقات والمسئوليات بين الرجل والمرأة دفعاً للشقاق في محيط الأسرة وللتنافض والشنود في محيط المجتمع .

إن المرأة قبل الإسلام كانت محرومة من كثير من حقوقها ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بدعوة الإصلاح والعدل والحرية والمساواة ، أصبحت النساء كما يقول الرسول : شقائق الرجال ، وتمتعت المرأة بشخصيتها الإنسانية الكاملة حتى إنه أجاز لها أن تكون عقدة النكاح بيديها . وإذا كانت الحضارة الحديثة تدعى أنها أعطت للمرأة كل حقوقها ، فإن الذي لا جدال فيه أن هذه الحضارة حين احتاجت إلى المرأة قالت لها خذي حقلك ولا فرق بينك وبين الرجل .

على أن هذه الحضارة قد جنحت بالمرأة أخيراً إلى طريق وعر مخوف بالمخاطر الجسيمة ، وقد انلغست المرأة في هذا الطريق بلا وعي ناضج وأضحت الحضارة بالنسبة لها مزيداً من العرى والانطلاق .



إن الحضارة في جوهرها علم وخلق ، وليست ثوباً يشف عما تحته  
أو لا يكاد يوارى ما يجب ستره ؛ احتراماً للمرأة وتقديراً لها ، وما نراه في  
الحياة الآن برهان على أن ما قاله الرسول في حقهن : بأنهن ناقصات عقل  
ودين ؛ صحيح .

٢٣ - كل داع إلى أمر عظيم لابد أن يكون له أهلاً ، وإلا خاب  
سعيه وضاع أمله .

إن الدعاة والمصلحين يواجهون دائماً بالإنكار والرفض والسخرية ،  
وعلى قدر ما يكون عليه الداعي من الثقة بنفسه والتذرع بالحلم  
والصبر إزاء ما يفعله قومه معه يتوقف نجاحه وبلوغه غايته ، فهذا  
محمد صلى الله عليه وسلم وهو إمام الدعوة رقدوة المصلحين والمجددين لم  
تضعف يوماً عزيمته ، ولم يفقد الثقة بنفسه ، وقد أمره الله بما أمره من  
الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ومن الإعراض الجميل عن سفاهة قومه ،  
والصبر على ما يقوون من هجر القول أو ما يفعلون من سيئ الأفعال . .  
وفي موقف سيدنا إبراهيم من أبيه صورة من صور الدعوة إلى الله  
بالحكمة واللين والرفق . إن الدعوة أساة ، والطبيب الناجح هو الذي يعرف  
الداء والدواء ، ويصبر على أذى المريض حتى يبرأ من علته .

٢٤ - وبعد ، فإن الهجرة تذكرنا بأن الإسلام دين عزة وحرية  
وأن المؤمنين به لا ينامون على ضيم ولا يرضون بالدنية في دينهم ودنياهم  
ولا يبخلون على عزتهم وحريتهم بأموالهم وأنفسهم ، وفرض عليهم جميعاً  
أن يهبوا ليلتراوا عن كل مسلم مهما نأت دياره الظلم والعدوان فهم  
كالحسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى  
والسهر .

والمسلمون اليوم يواجهون عدواناً لم يسبق أن واجهوا مثله في تاريخهم



الطويل ، إنه عدوان يريد لهذه الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس أن يضمحل كيانها ويتوقف تقدمها ونحيا ذليلة مستضعفة إن لم يتمكن من إفنائها أو تحويلها إلى لاجئين يعيشون على الإحسان والإعانة .

إنه عدو لا يتورع عن سلوك كل طريق يحقق له أطماعه وأطماع ساداته الذين يدفعون إليه بمختلف أسلحة التدمير والإبادة ، وهو فوق ذلك عدو لا يحترم قانوناً ولا عهداً ، إنه عدو يشبه قطاع الطرق أو قراصنة البحار يسرق عنوة ويقتل دون رحمة ، وإزاء هذا الخطر لا سبيل إلى صدّه والحيلولة بينه وبين ما يريد من غير وحدة قوية ، واعتصام بتعاليم ديننا فيما نقول ونفعل .

وهنا أحب أن أقول للشباب بوجه خاص احذروا وتنبهوا واعملوا ، وثقوا أن كل ساعة من العمر تضيع في اللهو سوف تعيشون أمثالها في ألم .

إن أعداءكم لا يقصدون النيل والفرات ليقفوا عندهما ، إنما يبغيون محو الإسلام ، وكل آثاره في الأرض .

إن المستقبل لكم فإذا لم تدرأوا عنه هذا الخطر ، أضعتم كيانكم وأمتكم وشرفكم ، فعيشوا للمعركة ، وكافحوا بشرور الفساد والإلحاد والتخلف والترف ، وإلأفسدتم من الداخل وتقوضتم وصرتم صيداً هيناً على أعدائكم .

ولا تغرنكم كثرة العدد فهي غشاء كغشاء السيل إذا لم تعتصم بالعقيدة الرشيدة ، والحد الحازم ، والعمل المشمر . إن عدوكم لن يتخلى عن سياسة الغصب والنهب حتى يحقق أطماعه البعيدة وآماله الكبرى ، وهي آمال إذا نالها — لا قدر الله — فإنكم ستكونون في أوطانكم لا جثين أو مستعبدين .

إن هذا العدو منذ نحو خمسين عاماً لم يكن شيئاً ذا بال في فلسطين ،  
وهاهو اليوم كما ترون ، فكيف يكون إذا استمر على خطته بعد خمسين  
عاماً أخرى .

لا تظنوا أن أحداً سيدفع عنكم خطراً أو يحمي لكم وطناً ، ولكن  
عقولكم وسواعدكم ودماءكم هي التي تصون كرامتكم وعرضكم ، وتحول  
بين عدوكم وبين ما يريد به بكم .

إن الأمم المتحدة - على ما لها من فضل في بعض الميادين - هي  
التي أقرت سرقة فلسطين وهي اليوم تقف مكتوفة الأيدي إزاء ما يقع  
من مجازر في الهند الصينية أو كبت وقهر وتفرقة عنصرية في القارة  
الإفريقية وحتى في أمريكا زعيمة العالم الحر كما يقولون .

إن هذا يفرض عليكم أن تأخذوا الحياة دائماً مأخذ الجد ، لا  
مأخذ اللهو والعبث والجرى وراء ما يأتيه بعض الشباب الأجنبي من  
تصرفات هي في الواقع صدى للحضارة المادية المعاصرة التي تعيش على  
شطر واحد من شطري الحضارة المثلى .

إن الحضارة المادية وسيلة لا غاية ، فإذا انقلبت غاية أضحت  
نقمة لا نعمة ، ولا بد أن تقود إلى الدمار .

ومن شواهد نقمة هذه الحضارة ذلك الخوف الذي يسيطر على  
الجميع من حرب لا تدع حيواناً . وأيضاً ذلك الذي نشاهده من بعض  
الشباب ، فهو يعكس قلقه النفسي ومحاولة الهروب من واقع حاضره  
المضطرب المشحون بالخاوف والتوجس من مستقبل يحمل الدمار والهلاك .

إن لكم حضارة لا تعرف الانقسام بين الروح والبدن ، وهي  
حضارة إنسانية ، لأنها تمتاز بخصائص تجعلها خير الحضارات وهي :  
احترام الإنسان ، والتمسك بالمثل العليا ، وحرية الفكر والعقيدة واتباع

العقل وتمجيده ، ومن ثم لم تعرف التفرقة العنصرية ولم يكن غايتها استعباد الشعوب وسلب ثرواتها ، وعبادة الشهوات والمال وتكريس كل الجهود من أجلهما .

فليكن لكم إذن شخصيتكم الأصيلة ، وقيمكم الفريدة ، وفي تاريخكم أجداد باهرة ، وبطولات رائعة خليقة بأن تحتذى ، وأمامكم قبل هذا ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً ، لن تضلوا طريق العزة والقوة والحضارة والكرامة والشرف والإباء ، وهذا الذي يعصمكم من الضعف والهوان هو كتاب الله وسنة رسوله ، وصدق الله العظيم : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذاكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١) .

والحمد لله أولاً وأخيراً .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٨٠٨ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧١





## تقدم هذه المجموعة من الدراسات القرآنية

- القرآن والتفسير العصري « هذا بلاغ للناس »  
للدكتورة بنت الشاطي
- التفسير البياني للقرآن الكريم  
للدكتورة بنت الشاطي
- التفسير العلمي للآيات الكونية  
للأستاذ حنفي أحمد
- الأديان في القرآن  
للدكتور محمود بن الشريف
- مع القرآن في آدابه ومعاملاته  
للدكتور عبد الحسيب طه حميدة
- مقال في الإنسان ، دراسة قرآنية  
للدكتورة بنت الشاطي
- الأمثال في القرآن  
للدكتور محمود بن الشريف
- الدعاء في القرآن  
للدكتور محمود بن الشريف
- الصيام في القرآن  
للأستاذ محمد الدسوقي